الخِدمةُ الاجتماعيَّة النَّاهضة

(مِن التكيُّفِ إلى صُنعِ الأملِ)

أ د. عقيل حسين عقيل

2022م

المحتويات

المقدّمةُ 4

التكيُّف..... 6

التكيّفُ مظلّة 15

التّوافقُ نُقلة يصنع الأمل 20

صُنع الأمل نُقلةُ بين تكيّفٍ وتوافقٍ:.....26

التكيّف والتوافق بين إصلاح وحلّ 31

التكيُّف والتوافق على كفّتي العدالة 37

المأمولُ 42

الأمل يسبق المأمول صُنعًا.....50

الآملُ يصنعُ مأمولٌ 75

الأمل يُصنع، ويرسّخ المكانة.....84

صُنع الأملُ في دائرة الممكن.....95

صناعةُ الأمل.....121

الأملُ صُنعٌ وارتقاء 133

الأمل من أجل نيل المأمول.....140

صُنع الأمل نُقلة ورفعة.....147

المأمولُ قمَّةٌ 166

صدر للمؤلّف.....171

المؤلّفات 173
المؤلّف في سطور..... 193

المقدّمةُ

يُقدّم مؤلَّفنا: الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة من التكيّف إلى صُنع الأمل مجهودًا متأسّس على قراءة واسعة في مجالات الخدمة الاجتماعيّة وأساليبها وميادينها ووسائلها، التي كادت أن تركن إلى السُّكون وعدم التجديد، مما حفّزنا على إظهار هذا الجهد نهضة فكريّة ورؤية موضوعيَّة؛ ليكون بين أيدي المتخصّصين في مهنة الخدمة الاجتماعيَّة مادَّة للتطوير والتجديد؛ بغاية نهضة علميَّة مواكبة للنُّقلة العلميَّة التي صاحبت كل التخصصات العلميَّة والمهنيَّة في العلوم الطبيعيَّة والإنسانيَّة والاجتماعيَّة.

ولقد وقفنا على نتائج هائلة تُثبت أنَّ قيمة التكيُّف ليست دائمًا ذات أثر إيجابيّ، بل هي في معظم الأحيان ذات أثر سالب؛ كونها لا تكون إلَّا والتنازلات مِن قِبل الضُّعفاء وذوي الحاجة تُقدَّم الواحدة من بعد الأخرى.

ثمَّ ميَّزنا بين مفهوم التكيُّف ومفهوم التوافق، وبيَّنا مفهوم قيمة كلٍّ منهما؛ ومن هنا تمَّ فكّ ذلك اللبس الذي كان عالقًا في أذهان المتخصِّصين والقرَّاء الكرام على السَّوى.

فذلك التكيُّف الذي كان البعض يقرأه وكأنَّه غاية في ذاته، أصبح واضحًا أنَّه المفتقد لمعطيات الغاية، وهكذا لم يعد التوافق غاية في ذاته، بل الغاية من ورائهما بلوغ غايات أعظم، غير أنَّ الفارق بين قيمتي التكيُّف والتوافق: أنَّ التوافق يؤدّي إلى رسم السياسات المشتركة دون أن يكون

البعض عبئًا على بعضٍ، وفي المقابل فإنَّ السياسات في دائرة التكيُّف لا تُرسم إلى والبعض على حساب بعضٍ، ومن هنا فلن تكون صانعة لأملٍ ولا محقّقة لنهضةٍ.

ولأنَّ التكيُّف لن يكون غاية، وكذلك التوافق لن يكون غاية، فإنَّ النَّهضة الفكريَّة والحضاريَّة والإنسانيَّة لن تكون إلَّا والأمل يُصنع؛ وذلك بغاية بلوغ المأمول ونيله.

ومع أنَّ الأمل قيمة ثمينة، فإنَّه ليس بغاية في ذاته، بل الغاية من ورائه أن يكون الأمل محفِّزًا على صنع أمل أعظم، أي: ينبغي كلَّما ننجزُ مأمولٌ نفكِّر في صنع مأمول أهم وأعظم، ثمَّ نعمل من أجل بلوغه ونيله، وهكذا لن يكون للنَّهضة حدود لتقف عندها؛ ولن يكون لنا مستقبلًا مأمولًا ما لم نلتفت لأنفسنا وعقولنا ونقيّم أحوالنا؛ لكي نحدّد مواقعنا على خريطة خَلق الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم.

أ د. عقيل حسين عقيل

2022م

التكيُّف

التكيُّف في مهنة الخدمة الاجتماعيّة النَّاهضة لا يعدُّ إلَّا تأقلمًا مع تلك الحالات التي لا تكون إلَّا أمر واقع وينبغي أن يُغيَّر، ولهذا فإنَّ مهنة الخدمة الاجتماعيَّة لا تقبل الاستسلام للأمر الواقع إذا كان في طريقه إلى التأزُّم.

وهي المهنة التي تُقدِّم المساعدة الهادفة لمن هم في حاجة إليها دون أن تُسهم في بقائهم على الحاجة، أي إنَّها المهنة التي لا ترى الإنسان إلَّا قوّة وينبغي أن يكون عليها قويًّا.

ومن هنا فإنَّ مهنة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة تتقبَّل الواقع كما هو لا لأن تُقرّه هكذا واقعًا ساكنًا، بل تتقبّله بغاية صُنع المستقبل الأفضل للأفراد والجماعات والمجتمعات، وهو الذي يستوجب الأخذ بأيدي الأفراد والجماعات إلى بلوغ تلك الغايات المأمولة، التي لا تُبلغ إلَّا بصنع الأمل.

ولذا فالخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة لها ما لها من المآخذ على تلك الأقوال، بل وتلك التنظيرات التي لا ترى التكيُّف إلَّا موجبًا؛ ولهذا فهي تقدّم البديل حلًّا وبلا مواربة.

وعليه: مع أنَّ البعض لا يرى التكيّف إلَّا موجبًا فإنَّنا لا نراه إلَّا للضّرورة؛ كونه رضوخ للأمر الواقع الذي لا رفعة فيه ولا قمّة، ومن يقبل بالرّكون إلى التكيّف مع الأمر الواقع فلا أمل له أن يصنع نُقلة؛ ولذا فالتكيُّف تنازلات تقدّم بغاية القبول وفقًا للضّرورة، ومن ثمَّ فالتكيُّف

موائمة نفسيَّة بين الفرد أو الجماعة والبيئة التي هم فيها، أو البيئة التي تحيطهم، بعد القبول الضمني بتقديم التنازلات، أو القبول بالتغيير بما يتناسب مع من هم في حاجة للتكيُّف، ومن هنا فالسَّجين الذي في بداية أمره سجينًا لا يمكنه التكيُّف مع السّجن، ولكن بمرور الزَّمن يتكيّف مع السّجن كأمر واقع لا مفرَّ منه؛ إذ لا معطيات من إحداث النُّقلة، ومن ثمَّ فالسّجين مهما تحقّق له من تكيّف مع السّجن والسّجانين لا يمكن أن يتوافق معهم، ولا مع السّجن، مما يجعل الفرق كبير بين التكيُّف الذي لا يتمُّ إلَّا بتنازلات، وبين التوافق الذي لا يتمّ إلا عن إرادة وبدون تقديم تنازلات؛ ولذلك فالتكيّف تآلف وتقارب يتمُّ به تعديل السُّلوك، أو تغيير اتجاهه وفقًا لِما هو كائن.

والتكيّف موائمةٌ مبدأ قيمي لا يكون إلّا ضرورة من ضرورات الحياة؛ فالتكيّف الذي يعني المواءمة يستوجب في كثير من الأحيان تنازلات من المتكيّف إلى الموضوع المتكيّف معه، أو المتكيّف من أجله، وهذه التنازلات لا يمكن أن تتمّ إلّا للضّرورة، وبما أنَّ الضّرورة تستوجب ذلك، إذن: قد يحدث التكيّف ولا يتحقّق التوافق نُقلة.

ومن هنا فالتكيف يستوجب تعديلًا في السّلوك تجاه ما يتراءى للمختلف والمخالف، وإن لم يتمّ تعديل السّلوك؛ فالتكيف لن يتحقّق حتى مع البيئة الطبيعيَّة كالجبال والوديان، والبرد القارس، والحرّ الشديد؛ فالإنسان عندما يضطرّ عن غير رغبة إلى العيش في بعض أماكن الطبيعيَّة

فهو بالزّمن سيجد نفسه متكيّفًا مع المناخ والطّقس المتغيّرين، وبالتكيّف يتأقلم ويكتسب مناعة، ولهذا فلا تكيف إلّا من أجل البقاء وليس من أجل إحداث النُقلة وصنع المستقبل.

ومع ذلك فالتكيف قد يكون سالبًا، وقد يكون موجبًا؛ فعندما يكون مع الظّلم، والفساد، ومع السّلوك الانحرافي المخالف للدّين، والعرف، والقيم الحميدة، يُعدُ سلوكًا سالبًا، أمَّا عندما يكون مع الخير والعدل وممارسة الحرّية بأسلوب ديمقراطي، ومع الأخلاق التي يرتضيها الجميع، فيكون تكيّفًا موجبًا، وهكذا سيكون موجبًا كلّما كان نتيجة للتوافق، وكلَّما كان محفّزًا على إحداث النُّقلة[1].

التكيّف موائمة مبدأ قيمي لا يكون إلّا ضرورة من ضرورات الحياة؛ فالتكيّف الذي يعني المواءمة يستوجب في كثير من الأحيان تنازلات من المتكيّف إلى الموضوع المتكيّف معه، أو المتكيّف من أجله، وهذه التنازلات لا يمكن أن تتمّ إلّا للضّرورة، وبما أنَّ الضّرورة تستوجب ذلك، إذن: قد يحدث التكيّف ولا يتحقّق التوافق الذي فيه النّقلة رفعة.

وبمعنى آخر، قد يحدث التقارب النّفسي، أو التقارب في وجهات نظر المختلفين نتيجة مصلحة أو ضرورة سياسيَّة، أو اجتماعيَّة، أو اقتصاديَّة أو فكريّة، ولكن في معظم الأحيان لا يحدث التطابق بين المختلفين على الموضوع.

[1] عقيل حسين عقيل، السياسة بين خلافا واختلاف، ص 45 . 47.

ومع أنَّ التكيُّف قد يحدث فإنَّه في معظم الأحيان لا يكون عن رغبة، كما هو حال السّجين الذي لا رغبة له بأن يكون داخل جدران السّجن مقيّد الحرّية، ومع ذلك عبر الزّمن سيتكيّف السّجين مع السّجن كأمر واقع، ومن هنا فالتكيّف في كثير من الأحيان يعدُّ قيدًا على المتكيّف بغير إرادة، ولهذا فشعوب الاتحاد السوفييتي تكيّفت بالقوّة مع النظام الماركسي اللينيني سبعين عامًا دون أن تكون لهم إرادة حرّة.

ولأنَّ التكيُّف بأسباب الضّرورة، فلا يمكن أن يكون إلّا بعد القبول بتقديم تنازلات مادّيَّة أو معنويةً؛ فعلى سبيل المثال: تعدّ مهمة الشّرطة والجيش هي الحفاظ على الأمن في الداخل والحفاظ عليه من الخارج، ومن ثمّ يجنّد الشّباب للجيش والشّرطة، ولكن وللأسف الشّديد في الأنظمة غير الديمقراطيَّة الشّباب يجنّدون لمواجهة من لم يتكيّف مع النظام وحكومته المحكومة بأمر قمّة السّلطان غير العادل؛ وبذلك يُقمع الشّعب إن لم يتكيّف مع توجهات الحاكم وآرائه وسياساته الخاصّة، ومن هنا لن يصبح أمام الشعب إلَّا أحد الأمرين:

- القبول بالأمر الواقع والتكيّف معه سُفليَّة.

- رفض الأمر الواقع والثّورة عليه نُقلة.

ولذا في الأنظمة الدكتاتورية تُعد مهمّة رجال الشرطة، ورجال الجيش مهمّة وضع القيد على من لا يتكيّف مع الأمر الواقع وإن كان دونيَّة.

ومن هنا فالتكيّف يستوجب تعديلاً في السّلوك تجاه ما يتراءى للمختلف والمخالف، وإن لم يتمّ تعديل السّلوك فالتكيّف لن يتحقّق حتى مع البيئة الطبيعيَّة كالجبال والوديان، والبرد القارس، والحرّ الشديد؛ فالإنسان عندما يضطرّ عن غير رغبة إلى العيش في بعض من أماكن الطبيعة، فبالزّمن سيجد نفسه متكيّفًا مع المناخ والطّقس المتغيّرين، وبالتكيّف يتأقلم ويكتسب مناعة، ولهذا فلا تكيّف إلّا من أجل البقاء، وليس من أجل إحداث النُّقلة إلى ما هو أرفع وأهم.

ولذا فاكتساب المناعة هو الأساس في عمليّة تحقيق التكيّف من عدمه، فعندما يكتسب الإنسان المناعة من سياسات الأنظمة القمعيّة يستطيع التعايش معها بلا مصادق، فيَتعمّد أن يُظهِرَ ما لا يُبطن حتى لا يشتدّ القيد عليه أكثر من غيره من الرّافضين، الذين بأسباب التكيّف يظهرون مالا يبطنون؛ فهم مع أنَّهم يأملون إحداث النُّقلة إلى التوافق المرضي فإنَّهم يظهرون الركون إلى التكيّف وكأنَّه الحلّ.

وعليه: أصبح المواطن في بعض البلدان يتكيّف مع الحاكم ونظامه، وأعوانه، وفي الوقت ذاته يتكيّف مع أعدائه، وهذا الأمر عوّده على أن يتكيّف مع الصّواب كما يتكّيف مع الخطأ.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في

مقابل قصور مشبعاتها، ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق نُقلة، الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنَّها متطوّرة، نعتقد أنَّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم؛ ولذلك فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقًا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعيّة، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاءه؛ فالإنسان خُلق متميّزًا بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقيّة الكائنات.

ومع أنَّ الكائنات خُلقت على خصائص وصفات، فإنَّ للمفاجآت أثر عليها، فعلى الرّغم من المفاجآت غير أنَّ الكائنات خُلقت على التهيؤ (التهيؤ الخَلقي، والتهيؤ السّلوكي)، ومن هنا فالتكيّف يلد مع الولادة خَلقًا، ثمّ يتولّد بعد ذلك تدبّرًا؛ فالكائنات كلّما حسّت أو شعرت بما يعرّضها لما يُقلق، أو يشكّل خطرًا عليها، تتهيأ لمواجهته حيطة وحذرًا؛ ولذلك نجد بعضها يتلوّن مع ألوان البيئة تكيّفًا واختفاءً، وبعضها يتكيّف مع التغيرات الفصليّة والمناخيّة، وبعضها العاقل يتكيّف مع ما يواجهه من إجراءات وأعمال في دائرة الممكن، ومع ذلك يبقي للفعل المضادّ أثره. فالبيئة وإن تكيّفت الكائنات مع متغيّراتها، يظل لمتغيّراتها صفات وخصائص خُلقيّة، مثلما للكائنات صفات وخصائص خلقية، ولهذا

فالكائن الضّعيف لا يستطيع أن يصمد كثيرًا؛ فكثير من النباتات والحيوانات تعيش في بيئة معينة، وتضعف في بيئة ثانية، ولا تنمو في بيئة ثالثة، أو لا تنضج ثمارها في بيئة رابعة.

فالتكيّف عمليّة ملائمة ومقدرة على التحسّن في بيئات مختلفة من أجل المحافظة على الحياة وبقاء الأجناس والأنواع، وقد يكون باكتساب خصائص جديدة، أو فقدان خصائص كانت سائدة، ممّا يجعل المتكيّف على حالة أو صفة معيّنة لم يسبق له أن كان عليها، وهو قدرة الكائن الحي على الاستجابة للمؤثّرات الطّارئة أو أيّ سلوك تطوّري بهدف البقاء.

ومع أنَّ النّشوء خَلقي، فإنَّ بقاء الخلائق لا تَساوي فيه؛ فهناك مَن يبقى متكيّفًا حتى النّهاية، وهناك من يزول عدمًا، ومن ثمّ فالتكيّف لا يكون إلّا عن قوّة، سواء أكانت قوّة بدنيّة أم عقليّة أم مناعيّة.

ومع أنَّ التكيّف قوّة، فإنَّه يكون مع السّالب، ممّا يستوجب تقديم التنازلات من أجل البقاء، فالسّجين على سبيل المثال: إن لم يتكيّف مع السّجن سينتهي حيث لا مقاومة (لا قوّة).

فالتكيّف موائمة نفسيّة بين الأفراد والجماعات والبيئة التي تحيطهم بعد القبول الضمني بتقديم التنازلات، أو القبول بالتغيير بما يتناسب مع ضرورة التكيّف؛ فالسّجين الذي في بداية أمره سجين لا يمكنه التكيّف مع السّجن، ولكن بمرور الزّمن يتكيّف معه كأمر واقع لا مفرّ منه، غير أنَّه مهما تحقّق له من تكيف مع السّجن والسجّانين، لا يمكنه التوافق معهم

ولا مع السّجن، وهنا، الفرق كبير بين التكيّف الذي لا يتمّ إلّا بتنازلات وعن ضرورة، وبين التوافق الذي لا يتمّ إلّا نُقلة وعن رغبة وإرادة، فالذين بأسباب الضّرورة يتحقّق لهم تكيّف مع السّجن، لا يمكن أن يكون لهم حنين إليه بعد أن يقضوا مُدد الأحكام الصادرة بشأنهم؛ ولذلك فالتكيّف ميل يدفع تجاه تعديل السّلوك، أو تغيير اتجاهه وفقًا لِما هو كائن.

والتكيّف كما يحدث مع الأمر السّالب يحدث مع الأمر الموجب، ولكن لا يحدث إلّا للضّرورة، ممّا يجعله بين ظاهرٍ وكامنٍ؛ ولذا فعندما تنقلب المفاهيم، تنقلب السّلوكيّات، ويصبح التكيّف الظّاهر لا يعبّر عن الكامن، ومن ثمّ يصبح الكامن متربصًا بفرص النّجاة وقد ينتهزها.

فالتكيّف لا يكون غاية طالما هو قائم على تقديم التنازلات سُفليَّة ودونيَّة، بل الغاية تحقيق التوازن في عمليّة تفضي إلى المحافظة على النّوع أو الحياة الخاصّة مع وافر التقدير لكل ما من شأنه أن يحدث النُّقلة توافقًا مع الحاجة ومشبعاتها.

ولننظر لما حدث مع بائع الخضراوات (التشيكي) الذي كتب على المحل المرخّص له ببيع الخضراوات فيه (يا عمال العالم اتحدوا) وهو لم يعرف الأبعاد الفكريّة لهذه المقولة، ولكنّه يعرف أنَّ كتابة هذه المقولة قد تقيه شرّ الحكومة وظلمها من أجل أن يبيع خضرواته بسلام، وهو غير مكترث بمضمونها الفكري، وهذا يدلّ على شعور داخلي مفاده:

أيّها المشترون أرجو المعذرة، أنا أعرف أنّ معظمكم مثلى لا يحبّ هذا الشّعار، ولكن الضّرورة الحياتية جعلتني أضعه على واجهة محلي لكيلا ترفعوا رؤوسكم إليه مرّة ثانيه، ولكي تتمكّنوا من اختيار أحسن الخضراوات، وعليكم أن تراعوا ظروفي. لقد وضعته من أجل أن يقال إنّي صادق، ومن أجل سلامتي وسلامتكم، وأعرف أنّ أكثركم يعارضه سرًّا، ولكن عليكم أن تعرفوا أنّ كتابتي هذه تعنى: معارضتي العلنية له، من أجل أن أكون صادقا معكم، وكاذبًا مع الحكومة التي يرضيها ما لا يرضيكم[2].

ومع أنَّ التكيّف عمليَّة تأقلم من أجل البقاء، وفيه من التنازلات ما فيه عن بعض الصّفات، فإنَّه لا يعدّ ضعفًا ووهنًا، بل الضّعف والوهن يلحق من لا يستطيع تأقلمًا مع البيئات المختلفة فينتهي بلا ثمن.

ولذلك استنتج داروين ما عُرف باسم قانون الانتخاب الطبيعي، فمتى ما يوجد تنازع على البقاء بين الأفراد، واختلاف وتمايز في الصّفات، فإنَّ هذا سيؤدّي إلى أنَّ الكائنات التي تتمتع بصفات تميزها على غيرها كسرعة الحركة أو قوّة العضلات أو طول الرّقبة كالزّرافة مثلاً، ستكون لها الفرصة الأفضل للبقاء وإنتاج مواليد جديدة، في الوقت الذي يفنى فيه خصومها ويزولون، ومن ثمّ يرى أنَّ التنازع على البقاء له تأثير انتخابي في

[2] الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، المجلد الثاني، الطبعة الأولى، 1988م، ص 26.

إزالة غير الصّالح من الأفراد وفي الاحتفاظ بالصّالح، وحيثما يبقى الصّالح حيًّا ويتكاثر يهلك الضّعيف[3].

ولهذا فالتكيّف ارتقاء يُمكّن من الصّمود وتحدّي الصّعاب، ومن يتحمّل أعبائه، يتهيّأ إلى بلوغ المأمول ولو طال زمنه.

التكيّفُ مظلّة:

مع أنَّ التكيُّف فيه من السّلبيَّات ما فيه، فكذلك فيه من تجنّب المخاطر ما فيه، وهذه لا تعد سلبيَّة عندما تكون الغاية من التكيّف اغتنام الفرصة الممكِّنة من التغيير وإحداث النُّقلة.

ولذا فالخلاف بين الأنا والآخر في معظم الأحيان لا بقاء له ولا استمرارية إلَّا تحت مظلة التكيُّف، والخلاف لا يكون خلافًا إلّا بقرار يستوجب تحمّل ما يترتّب عليه من أعباء جسام، وتلك الأعباء الجسام قد تجبر صاحبها بأسباب الضرورة أن يغيّر قراره من الخلاف المعلن إلى الخلاف السرّي تحت مظلّة (التكيّف نُقلة).

ومع أنَّ المخالف قد يقبل بنصب مظلة التكيّف ليستظل بها، فإنَّه لم ينصبها غاية، بل ينصبها مظلّة بأسباب الضرورة؛ ولذا فالمهزوم لا خيار له إلّا المقاومة وتحقيق النّصر، أو الاستسلام؛ فإن استسلم ليس له بدّ إلّا قبول التكيّف مع الوضع الجديد والمتغيرات الجديدة؛ فالتكيّف كونه تطبيعًا

[3] تشارلز داروين، أصل الأنواع، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 538 . 571.

علائقيًّا وتجنّبًا للمواجهة والصّدام فهو قبول الأمر الواقع حتى وإن كان الأمر الواقع سجنًا.

ولذلك فالتكيّف قائم على تقديم التنازلات بالقوّة الظّاهرة، أو الباطنة، سواء قلّت تلك التنازلات أم كثُرتْ، وبما أنَّ التكيّف لا يتمّ إلّا بتقديم التنازلات الماديّة عندما يقبل صاحبها بدفع الثّمنٍ المادّي، أو عندما يقبل بتقديم التنازلات المعنويّة، فإنَّ قبوله لتقديم التنازلات لا يدل دائمًا على حسن النيّة، ومن هنا فعندما يُوضع الإنسان المتكيّف في موقف لا يرتضيه لنفسه مع قبوله للموقف كرهًا، أو أن يقبل بأن ينزل منزلة هي أدنى من منزلته ويتكيّف معها إلى حين انتهاء الظرف والضّرورة فإنَّه بلا شكّ سيكون متربصًا بأوَّل فرصة تمكِّنه من النيل من أولئك الذين أكرهوه على اتخاذ التكيّف مظلة سُفليَّة.

والتكيّف لا يكون غاية طالما هو تجنّب للصّدام وقبول التطبيع العلائقي القائم على تقديم التنازلات بالإكراه، بل الغاية من ورائه هي التي تؤدّي إلى القبول والرِّضا في عمليّة توازن تفضي إلى المحافظة على المال، والنّفس والكرامة حتى تحين الفرصة ويتم اغتنامها نُقلة ورفعة.

إذن: نتيجة الخلاف دائمًا طرفان متواجهان سرًّا أم علنًا؛ فسرٌّ: في زمن قبول التكيّف، أمَّا العلن، فقبل زمن قبوله، أو بعد انقضاء عهده، ولا

يكون الخلاف إلّا على المضمون ظاهره أو كامنه، قال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى}[4].

فمع أنَّ هاتين الآتين جاءتا حُجّة لرسول الله عليه الصّلاة والسّلام، إلّا أنّهما جاءتا درسًا لبني الإنسان على وجه العموم، وللمؤمنين على وجه الخصوص، حتى لا يسود الخلاف بينهم، ومن هنا وجب التبيّن، وإلّا بالضرورة سيكون الخلاف واجبًا بين الحقّ والباطل؛ ولذا لا يمكن أن ينتهي أو يزول الخلاف ما لم تنتهِ وتزول المظالم التي بزوالها تفسح الطريق أمام الرّاغبين في إحداث النُّقلة توافقًا.

ومع أنَّه كان ينظر للتكيّف على أنّه ضرورة من ضرورات الحياة، وكأنّه حاجة من الحاجات الرئيسية للفرد والجماعة والمجتمع، فإنَّ الأمر ليس هكذا كما يبدو؛ فالتكيّف الذي يعني المواءمة يستوجب في كثير من الأحيان تنازلات من المتكيّف إلى الموضوع المتكيّف معه، أو المتكيّف من أجله، وهذه التنازلات لا يمكن أن تتمّ إلّا للضرورة، وبما أنَّ الضرورة تستوجب ذلك، إذن: قد يحدث التكيّف ولا تتحقّق نُقلة التوافق.

ومع أنَّه لا علاقة للتكيُّف مع الرّغبة فإنَّ للتكيّف علاقة مع التَّحسُّن؛ ذلك لأنَّ الأحوال قبل التكيّف لا تكون إلَّا سيئة، أمَّا من بعد التكيّف وإن كانت التنازلات عنوانها فالأحوال تتحسّن؛ ولذا فالتكيّف سلبيّة لا يكون اختياري إلَّا من شخص أناني، ووفقًا للضرورة، التي تدعو للتأقلم

[4] عبس 3، 4.

مع المتاح بدون اختيارات ولا بدائل؛ ولذا فكلما تغيّرت البيئات الطبيعيّة أو الاجتماعيّة تغيّرت الصّفات الظاهريّة للكائنات أشكال والوان وصفات، ولهذا فلتكيّف لدى الأسوياء لا يكون إلَّا تلونًا وتبدلّا حتى تتاح الفرص لإحداث النُّقلة.

ومع أنَّ الكائنات خُلقت على خصائص وصفات، فإنَّ للمفاجآت أثر عليها، فعلى الرّغم من المفاجآت غير أنَّ الكائنات خُلقت على التهيؤ (التهيؤ الخَلقي، والتهيؤ السّلوكي)، ومن هنا فالتكيّف يولد مع الولادة خَلقًا، ثمّ يتولّد بعد ذلك تدبّرًا؛ فالكائنات كلّما حسّت أو شعرت بما يعرّضها لما يُقلق، أو يشكّل خطرًا عليها، تتهيأ لمواجهته حيطة وحذرًا؛ ولذلك نجد بعضها يتلوّن مع ألوان البيئة تكيّفًا واختفاءً، وبعضها يتكيّف مع التغيرات الفصليّة والمناخيّة، وبعضها العاقل يتكيّف مع ما يواجهه من إجراءات وأعمال في دائرة الممكن، ومع ذلك يبقي للفعل المضادّ أثره. فالبيئة وإن تكيّفت الكائنات مع متغيّراتها، يظل لمتغيّراتها صفات وخصائص خُلقيّة، مثلما للكائنات صفات وخصائص خلقية؛ ولهذا فالكائن الضّعيف لا يستطيع أن يصمد كثيرًا، ومن هنا فكثير من النباتات والحيوانات تعيش في بيئة معينة، وتضعف في بيئة ثانية، ولا تنمو في بيئة ثالثة، أو لا تنضج ثمارها في بيئة رابعة.

فالتكيّف عمليَّة ملائمة ومقدرة على التحسّن في بيئات مختلفة من أجل المحافظة على الحياة وبقاء الأجناس والأنواع، وقد يكون باكتساب

خصائص جديدة، أو فقدان خصائص كانت سائدة، ممّا يجعل المتكيّف على حالة أو صفة معيّنة لم يسبق له أن كان عليها، وهو قدرة الكائن الحي على الاستجابة للمؤثّرات الطّارئة أو أيّ سلوك تطوّري بهدف البقاء.

ومع أنَّ النّشوء خَلقي، فإنَّ بقاء الخلائق لا تَساوي فيه؛ فهناك من يبقى متكيّفًا حتى النّهاية، وهناك من يزول عدمًا، ومن ثمّ فالتكيّف لا يكون إلّا عن قوّة، سواء أكانت قوّة بدنيّة أم عقليةّ أم مناعيّة.

ولذلك استنتج داروين ما عُرف باسم قانون الانتخاب الطبيعي الذي يرمي مدلوله إلى: إنَّه متى ما وُجد تنازع على البقاء بين الأفراد واختلاف وتمايز في الصّفات بين الكائنات تكون الفرصة لهذه الكائنات هي الأفضل للبقاء وإنتاج مواليد جُدد كما هو حال الكائنات التي تتميّز بصفات السُّرعة والحركة أو قوّة العضلات أو طول الرّقبة كالزّرافة مثلًا، وفي المقابل يفنى خصومها ويزولون، ومن ثمّ يرى أنَّ التنازع على البقاء له تأثير انتخابي في إزالة غير الصّالح من الأفراد، وفي الاحتفاظ بالصّالح منها، وحيثما يبقى الصّالح حيًّا ويتكاثر، يهلك الضّعيف[5].

[5] تشارلز داروين، أصل الأنواع، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 571.

التّوافقُ نُقلة يصنع الأمل:

التوافق نُقلة لا يكون إلَّا عن رغبة ودراية تُمكّنان من صُنع الأمل وبلوغ المأمول، وهذه من محفّزات العقل البشري على التفكير الممكِّن من إحداث النُّقلة وبلوغها، ونيل المأمولات المترتبة عليها.

ولذا فالتوافقُ لا يكون إلَّا عن رغبة وإرادة وهو المرحلة التي يتجاوز بها ذلك الشخص المتكيّف لتلك الظروف التي أجبرته على التأقلم وقبول الأمر الواقع أو الوضع الواقع كما هو لا كما ينبغي أن يكون عليه؛ ومن هنا فالتوافق انسجام إرادي تتماثل به الأقوال والأفعال بملائمة على الموضوع بين الأنا والآخر، ويتضمَّن التوافق انسجامًا ومشاركةً موضوعيَّةً تتطابق فيها وجهات النّظر أو الأفكار، ما يجعل المشاركة بين الطّرفين موجبة لتساوي كفتيهما بإرادة، وهذا لا يعني ألَّا يكون التوافق سالبًا، فمثلما يتوافق الإصلاحيون كذلك يتوافق المفسدون، والفرق بينهما الموضوع والغايات التي من ورائه؛ ولذلك يكون التكيّف للضّرورة، ويكون التوافق للوجوب.

ومن ثمَّ فالتوافق يؤدّي إلى مغالبة الصِّعاب وإحداث النُّقلة، أمَّا التكيف فيؤدّي إلى التسليم والقبول بالأمر الواقع على الرُّغم من سلبيّته؛ ولذا تكون السلبيّة في مضمون التكيف ما لم يكن التكيّف مترتّبًا على

عمليّة توافقيّة، ولهذا في التوافق يكون للإنسان رأيًا ومشاركة بدون ضغوط من أحد، أمَّا التكيف في معظم الأحيان فلا يترك لصاحبه رأي حرّ[6].

وعليه: التوافق قيمة لا تكون سائدة بين النَّاس إلَّا رغبة وإرادة، ويعد التوافق تماثل إرادي بين الأنا والآخر، ولا يمكن بلوغه إلَّا بِنُقلة من حالة التكيّف والرِّضاء بالأمر الواقع إلى ما من شأنه أن يُمكِّن من الانسجام توافقًا، ومع أنَّه نُقلة فإنَّ بلوغها وإن كان في دائرة الممكن فهو ليس بالأمر الهيّن، والتّوافق لا يكون إلّا بتطابق المطلب مع الرّغبة، وتطابق الحاجة المتطوّرة مع مشبعاتها المتنوّعة وظروفها الموضوعيّة، وهو المحقّق للرّضا دون تقديم تنازلات بغير حقّ.

ومن هنا فالتّوافق انسجام إرادي، تتطابق به الأقوال والأفعال مع الموضوع بين الأنا والآخر، ويحقّق انسجامًا وتطابقًا بين أراء وأفكار ووجهات نظر المشاركين في الموضوع الواحد؛ ممّا يجعل المشاركة بين الطّرفين أو حتى الأطراف موجبة لتساوي كفّة التوافق إرادة.

ومع أنَّ التّوافق واحد، إلّا أنَّ للتوافق أنواعًا موضوعيّة كتوافق الزّمن مع الزّمن، وتوافق المكان مع المكان، وتوافق الظّرف مع الظّرف، وتوافق الودِّ مع الودِّ، وتوافق الظّلم مع الظّلم، وهكذا التّوافق لا يتعدّد ومواضعه ومعطياته تتعدّد، حتَّى في القصاص لا حلَّ للمشكل ولا حكم فيه عدلًا

[6] مصدر سابق، الخدمة الاجتماعية (مفاهيم ومصطلحات) ص 81.

إلّا بالتّوافق: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}[7].

ولكن متى سيكون التّوافق نُقلة لصناعة المستقبل المأمول؟

. عندما يكون للمتوافقين رؤية لمستقبل أعظم.

. عندما يكون للمتوافقين مشروع نهضة يُمكِّن من نيل المأمولات بناءً واعمارًا.

. عندما يكرّم الإنسان كما شاء الله تعالى له أن يكون مكرّمًا.

. عندما تمارس الحريّة دون أن يمتد أحد على حساب حريّة الغير.

. بعد أن ينتهوا عن أعمال الإفساد ولا يعتدون.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم المودّة.

. بعد أن يقدّروا الغير احترامًا واعتبارًا وأن يتقبلوا ويتفهموا ظروفهم ثمّ يستوعبونهم (كما هم) من أجل مستقبل إنساني يأمله الجميع ويشتركون في صُنعه.

. بعد أن يلغوا من قواميسهم الفكريّة أفعال الحرمان والهيمنة والإقصاء.

. بعد أن تُصبح العدالة هي الحكم فيما هم فيه مختلفون.

[7] المائدة 45.

. بعد أنْ يُصَحِّحوا المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة، وكذلك عندما لا يتمسّكون بوجوبيّة تماثل القيمة مع الواقع وكأنَّ القيم تمتلك مطلقيّة الثّبات؛ ولذا في بعض الأحيان الواقع يتقدَّم على القيم ممّا يستوجب العمل على تقييم القيم وتقويمها لكي تواكب حركة التغيّر والتقدّم نُقلة إلى الأفضل والأجود والأنفع، وفي البعض الآخر الواقع يتخلّف كثيرًا عن معطيات القيم ممّا يستوجب عدم الرّكون إلى الواقع المتخلّف والتمسّك بالقيم المستمدّة من الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة.

ولأنَّه التوافق نُقلة عن تلك الحالة التكيُّفيَّة بغاية صُنع المستقبل رفعة مأمولة، فيجب أن يُقبل ويتم الإقدام عليه ولا يرفض؛ ذلك لأنَّ الرّفض يتعلّق بما يكره؛ إذ لا عدالة، بل في كثير من الأحيان تكون الغاية من الرّفض بلوغ التوافق بين الأنا والآخر، ومن هنا فالرّفض للظلم خير يجعل النَّاس متحابّين على الحقّ والعدل نُقلة.

إذن: التوافق قيمة نفسيَّة واجتماعيَّة وإنسانيَّة إذا سادت قيمته بين النَّاس كانت دليلًا على انتشار الودّ بينهم نُقلة، وإذا انعدمت قيمة التوافق لن يكون الود إلّا في خبر كان.

ولهذا فمتى ما انتهت الخلافات بين النَّاس سادت بينهم المودّة والمحبَّة، ولكن إن سادت بينهم المظالم وعمّت تماثلوا في ارتكابها، ومع أنَّ النّاس يتماثلون في ارتكاب المظالم، فإنّهم لا يتّفقوا ولا يتوافقوا على ارتكابها، ولهذا فهم مختلفون ويظلوا كذلك إلّا من رحم ربّك.

والتساؤل:

ما هي مُحقّقات صُنع المستقبل الاجتماعي؟

أقول:

كثيرة، ومنها:

1 ـ تقبُّل الآخر وتقديره وتفهُّم ظروفه المتعدِّدة.

2 ـ استيعاب الآخر (هو كما هو) والعمل معه من أجل بلوغ ما هو أفضل للجميع.

3 ـ الاتّفاق في وجهات النّظر أو القرار أو الفعل أو العمل المشترك، دون ضغوط من احدٍ على أحدٍ.

4 ـ عدم تقديم التنازلات على حساب ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليّات.

ومن هنا فالتوافق لا يكون إلّا بين العقلاء، أمَّا التكيّف فينسحب على العقلاء وغيرهم كالمكان والأشياء التي نتكيّف معها ولا نتوافق معها على الرّغم من اشتراك المفهومين بمعطيات كثيرة؛ ذلك أنَّ المتكيّف غالبًا ما يكون اهتمامه ماديًّا، أمَّا المتوافق فاهتمامه ينصبّ على الجانب الرّوحي والعقلي والمعنوي من حيث الأفكار والمعتقدات والآراء والطموحات والآمال والنهضة المرجوة نُقلة.

إذن: للتوافق أهميَّة فكريَّة عمادها العقل، أمَّا التكيّف دونيَّة فلا يكون إلَّا ماديًّا والزّمن كفيل بتغييره أو إحداث النُّقلة وصنع المستقبل، كأن يتكيّف الإنسان مع الغُربة أو السّجن أو يتكيّف مع جلسة معيّنة تُفرض عليه بوضع معيّن لمدّة محدّدة، فيجد نفسه مضّطر للتكيّف في فترة زمنيّة معيّنة لظرف خاصّ ليس له فيه رغبة ضمن بيئة فرضت نفسها عليه، ولهذا تنتفي فيه الرّغبة على الرّغم من القبول بالواقع، ومن هنا يكون التكيّف قائمًا على التنازلات، قلّتْ تلك التنازلات أم كثُرتْ، وبما أنَّ التكيّف لا يتمّ إلّا بتقديم التنازلات، ماديّة حينًا بدفع ثمنٍ مادّي، ومعنويّة حينًا آخر كأن يوضع الإنسان في موقف لا يرتضيه لنفسه مع القبول به، أو ينزل منزلة هي أدنى من منزلته فيتكيّف معها إلى حين انتهاء الظّرف والضّرورة. وفي المقابل التّوافق يقوم على الفكرة سواء أكانت مؤدّية إلى الرّفض أو القبول، انطلاقًا من إرادة ومبدأ يستهدف غاية مؤسّسة على الرّغبة والأمل، وهذه الرّغبة تدفع إلى بناء جسور التلاقي وإقامة علاقات قويّة مع الآخرين والتوافق معهم حجّةً وبرهانًا.

ومع أنَّ مِن غاية التوافق تحقيق التفاهم والتعاون والانسجام والسّلام المحدث للنُّقلة وصُنع المستقبل، فإنَّه في بعض الأحيان لا يتحقّق إلّا بإعداد العدّة المرهبة للخصوم، ومن هنا تظهر غاية من غايات الإرهاب التي تصبو إلى تحقيق الأمن والسّلام والطمأنينة في إقامة علاقات طيّبة بين فرد وآخر، أو بين مجتمع وآخر أقرب إلى التفاهم منه إلى الصّراعات والنزاعات.

وعليه: فالتوافق غاية إنسانيّة لا تكون سائدة بين النَّاس إلّا بتقدير قيمة الإنسان الذي من حقّه أن يقبل ويرفض، ويأمر وينهى، ويتكلّم ويعبّر، ويقرّر ويَقدِم على تنفيذ ما يقرّه دون أن يكون على حساب حقوق الآخرين ومجالات امتدادهم؛ ولذا فمن حقّه الانتقاد كما من حقّه التقييم والمحاسبة والتقويم والتصحيح والإصلاح والبناء والإعمار، ولا يجوز لأحدٍ أن يقصيه أو يحرمه من أيّ حقٍّ من حقوقه، ومن يحاول ذلك ينبغي أن يزاح من الطّريق الذي لا يعبّد إلّا من أجل مستقبل الجميع دون فرقة ولا فوارق.

والتوافق لا يكون بين النَّاس نُقلة تصنع المستقبل إلّا عن إرادة، ومتى ما بلغ النَّاس التوافق نُقلة بلغوا الحلّ الذي يجد الإنسان نفسه به مقدّرًا ومعتبرًا، فقمّة السُّلطان على سبيل المثال: عندما يكون صوته صوت النَّاس يكون هذا الصّوت دليل التوافق التَّام بين الشّعب وقمّة السُّلطان نُقلة، وعندما تختلف الأصوات بين الشّعب وقمّة سلّم السُّلطان لن يعلو صوت على صوت الرّفض الذي ينقل أصحابه من التسليم بغير حقّ إلى العمل المحقّ له نُقلة ورفعة[8].

صُنع الأمل نُقلةُ بين تكيّفٍ وتوافقٍ:

مع أنَّ النّقلة ليست قيمة بينيّة ثابتة فإنَّ التغيير وصنع الأمل قمّة ورفعة لا يتوَّج إلَّا بها؛ ولذا فالنُّقلة ليست قفزة في الهوى، بل هي امتداد

[8] عقيل حسين عقيل، الرفض استشعار حرية، ص 84 . 92.

الحركة الواعية في الاتجاه الصَّواب، وعن معرفة تامّة بأهميّة المترتّب على الجهد المبذول تجاه المأمول حتى بلوغه ونيله، فذلك التكيّف بعلل الحاجة والضرورة أصبح في خبر كان بعد بلوغ التوافق عن رغبة وإرادة.

ومن هنا فالتوافق نُقلة قيمة حميدة لصنع المستقبل فتستوجب جهدًا كبيرًا بغاية بلوغه رغبة وإرادة، ودائمًا حيث ما كان التوافق بين النَّاس قيمة مقدّرة ومفخّمة، كان الانسجام والتفهُّم بينهم سائدًا، ومع أنَّ التوافق قيمة مأمولة، فإنَّه من حيث المفهوم لم يكن الاتفاق؛ فالاتفاق مع أنَّه إرادي، فإنَّه يمكن أن يكون بين الأعداء كالاتفاق على وقف إطلاق النَّار في حالة ما إذا كان بينهم اقتتال، وهذا لا يعني أنَّهم متوافقون؛ فالتوافق لا يكون إلّا على رؤية وقضايا ومواقف جمعيّة، ممّا يجعل البعض يتوافق مع القيم ولا يتّفق مع أصحابها.

ومع أنَّ التّوافق قيمة اجتماعيَّة وإنسانيَّة وبلوغه قمّة ممكن، فإنَّه ليس بسهل المنال؛ ولذا فمن بلغه تجنّب المظالم، وآمن الآخرين، واطمأنَّ معهم، ومن لم يبلغه فلا هذه ولا تلك، ولذا فالتّوافق لا يكون إلّا بتقارب المطلب مع الرّغبة، وتقارب الحاجة المتطوّرة مع مشبعاتها المتنوّعة وظروفها الموضوعيّة، وهو المحقّق للرّضا دون تقديم تنازلات بغير حقّ.

ومن ثمّ عندما تُفخّم قيمة التّوافق تحقّق الانسجام الإرادي بين النّاس نُقلة تصنع مستقبلًا مأمولًا، ويصبح الانسجام سائدًا بين الأنا والآخر، وتصبح المشاركة بينهم موجبة.

ولأنَّ التّوافق مع الإيجابيَّات توافق مرضٍ، فإنَّ أصحاب الإيجابيَّات نُقلة لا يُقرُّون شيئًا من بعده ندمًا، ومع أنَّ التّوافق واحدٌ إلّا أنَّ للتوافق أنواع موضوعيَّة كتوافق الزّمن مع الزّمن، وتوافق المكان مع المكان، وتوافق الظرف مع الظرف، وتوافق الودِّ مع الودِّ، وتوافق الظلم مع الظلم، وهكذا فإنَّ التّوافق لا يتعدّد ومواضعه ومعطياته تتعدّد، حتَّى في القصاص لا حلَّ للمشكل ولا حكم فيه عدلاً إلّا بالتّوافق.

ومن هنا فإنْ أردنا استمرار النُّقلة من التكيّف إلى التوافق وعيًا وإرادة فعلينا بتقوية العلاقات التوافقيّة بين أبناء الوطن الواحد الذي ينبغي أن تكون علاقاته تراتبية بين الكبير والصّغير، وبين صاحب الفكرة وصاحب الخبرة، وصاحب المهارة، وصاحب الحُجّة، حتى يأخذ أصحاب الكفاءات العالية مكاناتهم، وفي المقابل لا توافق مع أنظمة لا تقدّر قيمة الإنسان وبخاصّة تلك الأنظمة التي تأسّس الحكم فيها على العصبيّة، أو أنْ تحكمها عصابة، مما يجعل قوّة الشوكة سائدة على حساب قوّة الكفاءة والمقدرة.

ومن ثمَّ عندما تُنظم العلاقات الاجتماعيّة وفقًا لرؤية قوّة الشّوكة؛ فلا يمكن أن تُبنى مؤسّسات وطنيَّة، وفي المقابل عندما تنظّم العلاقات الاجتماعيّة وفقًا لرؤية مؤسّسات الدّولة؛ فلن يكون هناك ولاء إلّا للوطن نُقلة، ومن ثمّ فدولة التوافق هي دولة النُّقلة الممكّنة من المزيد المعرفي، والممكّنة من بلوغ الغايات الوطنيّة المتطوّرة، ومن هنا فعندما تُفخّم وتعظّم القيم الحميدة بين النّاس والشّعوب فبالضرورة سَيُفخّم ويُعظّم أصحابها في

أوطانهم، وعندما تقوّض القيم الحميدة فلا بدّ أنْ يجد المواطنون أنفسهم في أوطانهم مقوّضين وكأنَّهم الغرباء ولا توافق.

ولأنَّ التكيّف لا يكون تكيّفًا إلّا بتقديم شيء من التنازلات كثرت أم قلت، فإنَّ تقديمها يجعل مِمَنْ قَدّمها قليل شأن، ومَن قُدّمت له ارفع درجة منه، ومن ثمَّ يكون راضيًا وقد يكون مطمئنًا، ولكن كما يقولون: دائمًا الجمر الذي تحت الرّماد مع أوّل هبّة ريح يشتعل في الغابة، ومن هنا فالأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى أسطح العمارات، ولم يضعوا في حسبانهم أنَّه لا نزول إلَّا من خلالها فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك بلا نُقلة إلى أنْ أُسقط بهم أرضًا، كما هو حال القمم السُّلطانيَّة في تونس، ومصر، وليبيا، واليمن.

ومع أنَّ جميعهم قد أسقطوا، إلَّا أنَّ لكلٍّ منهم خصوصيّة؛ فقد أُسقط بقمّة السُّلطان ونظامه في تونس، ولم تُسقط العمارة (الدّولة)؛ فبقيت مؤسّسات الدّولة التونسيّة مع بقاء الجيش والشّرطة الوطنيين.

وأُسقط بقمّة السَّلطان ونظامه في مصر، ولم تسقط العمارة (الدّولة)؛ فبقيت المؤسّسات المصريَّة عاملة بسلام.

أمَّا في ليبيا فقد أُسقط بقمّة سُلطانها، كما أسقط بنظامه، وكذلك أُسقطت العمارة (الدّولة)؛ حيث لا مؤسّسات راسخة، ولا جيش وطني موحّد، ولا شرطة وطنيّة، ولهذا تعرَّضت ليبيا إلى ما تعرّضت إليه وعلى رأس ذلك إنَّها أصبحت قضيّة مدوَّلة، مما جعل مخابرات دول العالم وسفرائه

يمرحون فيها بلا قيد ولا شرط؛ ولذا فلا حلّ للمشكل الليبي ما لم يتوافق الليبيون على دستورٍ وطني وانتخابات حرّة وشفّافة، بها يتمكَّنون من عودة السّيادة وترسيخ الهويَّة الوطنيَّة، وصون تراب الوطن، وتطهيره من العبث والأجانب.

أمّا اليمن فكان الإسقاط فيها حربٌ أهليَّة والأمر لم يحسم بعد مع أنَّنا نرى أنَّه لا حلّ بلا توافق يتم من خلاله قبول الآخر مواطنًا يمني له من الحقوق ما له، وعليه من الواجبات ما عليه، ومن حقّه أن يشارك في حمل المسئوليَّة ويتحمّل ما يترتَّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه فإنَّ القمم السُّلطانيَّة في هذه الدّول التي أطلق عليها (دول الرّبيع العربي) قد لعبت برؤوسها، ولم تلعب بأذيالها، ومن هنا كان الفأر أكثر من قممها فطنة وذكاء؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيَّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

قال:

ألا يكون من الأفضل لي أنْ العب بذيلي بدلًا من أنْ العب برأسي؛ فأنا عندما العب بذيلي أفكر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

وعليه: فمن أجل أن لا يتكرر اللعب بالرّؤوس، فينبغي أن تُحدث النُّقلة التي بها تقوم دولة التوافق وصُنع المستقبل، وهي الدَّولة التي لا يكون فيها أحد مقصيٌ ولا محروم، ولا مغيّب عن ممارسة حقوقه، وأداء واجباته،

وحمْل مسؤوليَّاته الوطنيَّة، وهي الدّولة التي تبلغها الشُّعوب بعد نُقلة تعبر بها التوقّف عند حدود الإصلاح الذي كان مقبولًا لحدٍّ ما من أجل فكّ التأزُّمات، إلى بلوغ الحلّ السياسي والاقتصادي والأخلاقي، وهي الدّولة التي لا قيود فيها على الإرادة؛ لأنَّ الشّعب وحده قادر على أن يختار قمّة لإدارة سُلطانه، وفقًا لدستور مُقّرّ ومعتمد من قِبله، ومن هنا تُعدّ دولة التوافق هي دولة تحقيق النُقلة إلى كلّ ما من شأنه أن يحقّق التقدّم.

التكيّف والتوافق بين إصلاح وحلّ:

مع أنَّ التكيُّف قيمة والتوافق قيمة فإنَّ قيمة التكيُّف لا تساوي قيمة التوافق، وهما بالتمام يختلفان كما تختلف قيمة الإصلاح عن قيمة الحلّ؛ ولهذا فمن يأمل التكيَّف ليس له إلَّا القبول بالإصلاح؛ حيث لا حلّ، أمَّا من يتجاوز عقله القبول بالتكيُّف وقيمة الإصلاح فليس له إلَّا صُنع المستقبل الذي يمدّه بالقوّة الممكنة من التغيير ونيل المأمول رفعة.

ولذا فالعلاقة قويّة بين التكيُّف والإصلاح كون الاثنان مؤسّسين على تقديم التنازلات، ومن هنا فلا علاقة لهما مع التّوافق نُقلة الذي لا يكون إلّا عن تداعٍ إرادي، ومن ثمَّ فالمطالبة بالإصلاح يترتّب عليها القبول بالتكيّف، أمَّا المطالبة بالحلّ فيترتّب عليها تحقيق التّوافق نُقلة.

إذن: العلاقة بين الإصلاح والتكيّف علاقة تقديم تنازلات وقبول الأمر الواقع، ممّا يجعل العلاقات تؤسّس على خللٍ في الاتزان، أمَّا العلاقة بين الحلّ والتّوافق نُقلة لصناعة المستقبل، فهي علاقة تحقيق التّوازن والاتزان

المحقّقان للانسجام ونيل المأمول، حتَّى التتويج بالسّكينة والطمأنينة نُقلة تأتي من بعدها نُقلة.

ولأنَّ التوافق نتاج صنع المستقبل وبلوغ الرّفعة سيادة وإرادة فهو الممكّن من تجاوز مرحلة الإصلاح الذي لم يعد أملا كما كان لدى البعض، أي: لم يعدّ هو القاعدة كما كان مأمولًا، بل أصبح هو الاستثناء وفقًا للضرورة؛ ومن ثمَّ أصبحت القاعدة هي بلوغ الحلّ وليس الإصلاح.

ولأنَّ لكلِّ قاعدة استثناء فإنَّ لكلّ حلٍّ ظهيرًا يسنده عند كلِّ ضرورة وهو الإصلاح، أي: إنَّ الإصلاح هو المعين للحلّ، ولأنَّه المعين فهو لم يكن الأساس، بل هو المتوقّع لما هو متوقّع من فساد وهلاك بأسباب الاستخدام، أمَّا الحلّ نُقلة فهو المنتج الجديد المتطوّر المضاف لما سبق، الذي كلّما فسد وأمكن إصلاحه وجب الإصلاح المساند للحلِّ، ولهذا فالشعوب تتكيّف مع الإصلاحات، ولكنّها لا تتوافق نُقلة إلّا مع الحلِّ.

وعليه:

فهناك علاقة قيميَّة تربط التّوافق بالحلِّ، كما تربط التكيّف بالإصلاح؛ فعلى سبيل المثال: الإنسان عندما تفسد سيارته يلتجئ أوَّل ما يلتجئ إلى إمكانيَّة إصلاحها، وإن قَبِل بذلك قَبِل بتقديم شيءٍ من التنازلات؛ فهي لن تعود كما كانت وإن أُصلحت، وهكذا الحال في السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعيَّة والإنسانيَّة؛ فما يفسد منها ويصلح لن يرتقي إلى ذلك المستوى الذي يحقّق التّوافق دون تردّد، ممّا يجعل

التحفّظات تظهر بين الحين والحين، ولو كانت في أعماق الأنفس، ومع ذلك في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع؛ فإنَّ لكلّ قاعدة استثناء.

فالتّوافق كونه قيمة حميدة فهو قيمة مُرضية يُقرّ الرّفض لكلّ شيء غير مرضٍ، ولهذا في دولة التوافق لا يرفض المواطن شيئًا إلّا من أجل أن يسود توافق ونُقلة ويمكن من صُنع المستقبل، ومن هنا فالرّفض للظُّلم خير يجعل النَّاس على الحقّ حبًّا وعدلًا، وبهما الناس يتوافقون؛ إذ لا مظالم، ولا مكائد، ولا إقصاء، ولا تغييب، ولا تعذيب، ولا تسفيه الكلّ في حالة نُقلة ورفعة؛ ولذلك فالرّفض المؤدّي إلى التّوافق أمر واجب الأخذ به، والسعي إلى تحقيقه بموجبات تجعله من الثوابت المنطقيَّة، وهكذا أيّ أمر عندما يكون مطلبًا لا بدّ له من غايات ينتهي إليها، فالمنتهيات الغائيّة التي سيؤول أمر المطالب إليها هي تحقيق التّوافق الممكّن من بلوغ الانسجام نُقلة.

ولأنَّ سيادة التّوافق بين النَّاس قمّة ونُقلة ذات قيمة نفسيّة، واجتماعيّة، وإنسانيّة، وأخلاقيّة، وذوقيّة فهي سيادة للإرادة التي لا تبلغ إلَّا ببلوغ الحلّ مودّة ومحبَّة.

ومن هنا فالتّوافق مع الشيء أو مع الآخر ليس تكيّفًا مرحليًّا وفقًا لظرفٍ وبيئةٍ بقياس الزّمان والمكان، بل هو نُقلة بها تتحسّن الأحوال وترتقي رفعة وقمّة؛ ذلك لأنَّ التّوافق لا يكون إلّا مع العقلاء أصحاب الإرادة الحرّة، أمّا التكيّف فيكون مع العقلاء ومع غيرهم، كالتكيّف مع المكان

والتكيّف مع الأشياء التي لا إمكانيَّة للتوافق معها، وعلى الرّغم من اشتراك المفهومين بمعطيات كثيرة، فإنَّ التكيّف غالبًا ما يكون اهتمام أصحابه ركونًا مادّيًّا حسيًّا، وفي المقابل ينصبّ التّوافق على الجانب الرّوحي والعقلي والمعرفي والمعنوي؛ وذلك من حيث الأفكار والمعتقدات والآراء والطّموحات والآمال، أي: إنَّه ذو الجانب الفكري الذي عماده العقل، بينما يكون التكيّف مؤقّتًا، كأن يتكيّف الإنسان مع الغُربة، أو مع السّجن، أو يتكيّف مع جلسة معيّنة تُفرض عليه بوضع معيّن لمدّة محدّدة، فهو في مثل هذه الظّروف مضطر للتكيّف في فترة زمنية معيّنة لظرف خاصّ، ولهذا تنتفي الرّغبة فيه على الرّغم من القبول بالأمر الواقع، وفي المقابل لا يكون التوافق محقّق للنُّقلة إلّا عن رغبة وإرادة.

ولأنَّه التوافق نُقلة وصُنع مستقبل فدولته لا تقوم إلَّا على وجود الحلّ للتأزُّمات والمختنقات والصّعاب التي تواجه النَّاس في المآكل والمشرب والمأمن والتعلّم والنهضة بشكل عامٍ. إنَّها دولة الحلّ حيث لا يوجد لمن يقدِّم التنازلات التي هي معطية من معطيات زمن التكيّف؛ فالتكيّف لم يعد غاية طالما هو قائم على تقديم التنازلات بالإكراه، بل الغاية المأمولة هي التي تؤدّي إلى التقبُّل، والرِّضا عن إرادة، من خلال عملية توازن تفضي إلى المحافظة على الوطن، ورأس ماله الاجتماعي، والأخلاقي، والاقتصادي، والثقافي، والذوقي، ومن ثمّ تحدث له النُّقلة وبه تتطلّع إلى المقامات العظام شريعةً، ومعرفةً، وعلمًا، وحضارةً.

وعليه:

فإنَّ التصرّفات القامعة للإرادة قد تؤدّي إلى اتفاق بين قوي وضعيف، يفضي إلى التكيّف تحت وطأة الضّرورة، ممّا يجعل أسباب التكيّف تؤول إلى الزَّوال طال الوقت أم قصر، ومن هنا فالتكيّف يختلف مفهومًا ودلالة عن التّوافق المرتبط بممارسة الحرّية من خلال نُقلة متجدّدة مع متغيرات الحياة حتَّى النّهاية.

ومن ثمّ يصبح التّوافق من الغايات المأمولة، ومن بلغه بلغ الحلّ، ومن لم يبلغه فعليه بالمثابرة والقبول بدفع الثّمن الذي يمّكنه من بلوغه ثمّ من بعده يصنع مستقبلًا أعظم، إنَّه القيمة الحميدة التي لا تسود بالإنسان إلا نقلة مقدّرة، ممّا يجعل المواطن قمّة يأمر وينهى، ويقرّر ويَقدِم على تنفيذ ما يقرّره دون أن تكون قراراته على حساب حقوق الآخرين ومجالات امتدادهم، كما يصبحُ من حقّه الانتقاد، والتقييم، والمحاسبة، والتقويم، والتصحيح، والإصلاح، والبناء، والإعمار، ولا يجوز لأحدٍ أن يقصيه، أو يحرمه من شيء له الحقّ فيه، ومن يحاول ذلك في زمن بلوغ الحلّ، يُزاح من الطريق الذي عُبِّد من أجل مستقبل الجميع نُقلة دون فرقة ولا فوارق.

ولأنّ التّوافق لا يكون بين النَّاس نُقلة إلّا عن إرادة؛ فمتى ما بلغ النَّاس التوافق بلغوا الحلّ وصنعوا المستقبل الذي به يجد الإنسان نفسه مقدّرًا ومعتبرًا؛ ولذا فقمّة السُّلطان عندما يكون صوته صوت النَّاس، يكون هذا الصّوت دليل التّوافق التَّام بين الشّعب وقمّة السُّلطان، وعندما تختلف

الأصوات بين الشّعب وقمّة سلّم السُّلطان؛ فلن يعلو صوت على صوت الرّفض والمواجهة والثورة، التي بها يُنقل النَّاس من التسليم بغير حقّ، إلى العمل المحقّ للحقِّ.

ولأنَّ التّوافق قيمة حميدة ومرضية لجميع المتوافقين؛ فهو المأمول الذي يعيد التوازن والانسجام بين الأفراد والجماعات والشّعوب، وكلّما توافق النَّاس في أوطانهم كانت وحدتهم الوطنية قوّة بها يتمكّنون من فرض إرادتهم وسيادتهم، أمَّا في الأوطان التي يتولّى أمرها محتكرو السّلطة فأوّل ما يستهدفونه هو العمل على كلِّ ما من شأنه أن يجعل الشّعب على غير توافق، مقسّمين بين طوائف، وقبائل، وجماعات، وأحزاب، وحتّى بلطّجيّة، وبهذه الفتنة يرى النظام أن سياساته هذه هي المحققة لبقائه واستمراره وامنه.

فقيام دولة التّوافق دليل إثبات عدم وجود خلاف بين النّاس (شعب أو أمّة) حيث لا سيادة للمظالم، ولا سيادة للتنافر، ولا سيادة للتّصادم، بل السيادة التَّامّة للتوازن بين المطالب والرّغبات، وبين الجهد المبذول والحاصل المنتج، وبين ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليّات، وبين الحق والعدالة، ومن ثمَّ يكون الانسجام ديمومة رضا بقوّة النُّقلة.

وعليه: في الوقت الذي توجد فيه علاقة نُقلة قويّة بين (التّوافق والانسجام والحلّ)، توجد فيه علاقة تخلّف ووهن بين (التكيّف والتلاؤم والإصلاح)؛ ذلك لأنَّ التكيّف يؤدّي إلى التلاؤم على الكفّة السَّالبة، وفي المقابل يؤدّي التّوافق إلى الانسجام على الكفّة الموجبة؛ فتتمّ عملية التكيّف

بما يتمّ تقديمه من تنازلات عن القضيّة أو عن شيء منها، ممّا يجعل المتكيّف في حالة تلاؤم لا تمكّنه من شيء سوى القبول بالإصلاح، أمَّا التّوافق فلا تنازل إلّا بمنطق، ولا أخذ إلّا به، ممّا يجعل المتوافق في حالة انسجام بها يتمكّن من بلوغ الحلّ.

إذن: الفرق كبير بين حالتي التلاؤم والانسجام، فالتلاؤم حاله كحال التكيّف لا يتمّ إلّا بتنازلات، أمّا الانسجام فحاله من حال التّوافق نُقلة لا يتمّ إلّا عن تراضٍ بالقول، أو الفكرة، أو المهارة، أو الفعل، أو العمل، أو السلوك، أو معها جميعًا.

التكيُّف والتوافق على كفّتي العدالة:

مع أنَّ البعض لا يميّز ولا يفرّق بين مفهوم التكيُّف ومفهوم التوافق فإنَّ مفهوم العدالة بينهما يُمكّن من الحكم والتمييز؛ ولأنَّ العدالة جاءت نُقلة من السّماء بغاية استخلاف الإنسان في الأرض بلا مظالم ولا إكراه؛ فإنَّ التوافق نُقلة لا يسود بين النَّاس ولا يصنع مستقبلًا إلّا عن إرادة وعدلٍ، ومن هنا فحيث ما كان التوافق بين النَّاس نُقلة كان العدل والانسجام والتفهُّم بينهم سائدًا بدون تقديم تنازلات غير مرضية.

وعليه: فالتّوافق انسجام إرادي، به تتوافق الأقوال والأفعال مع الموضوع بين الأنا والآخر، ويحقّق انسجامًا وتقاربًا بين أراء وأفكار ووجهات نظر المشاركين في الموضوع الواحد ممّا يجعل المشاركة بين الأطراف موجبة لتساوي كفتي العدالة نُقلة.

ولكن متى سيكون التّوافق نُقلة بين النَّاس ويصنع مستقبلًا؟

أقول:

. بعد أن يكونوا النَّاس طائعين للحقّ ومتبعين سُبله وأساليبه.

. بعد أن يكونوا طائعين لأولي الأمر منهم طاعة للأمر الذي هو الآخر نُقلة لا يكون إلَّا منهم.

. بعد أن تسود الفضائل الحميدة والقيم الخيّرة بينهم نُقلة.

. بعد أنْ يعترف كلٌّ منهم بالآخر.

. بعد أن تقدّر الخصوصيّة ولا يمتدّ أحد على حساب هويّة الغير.

. بعد أن تُمنح الفرصة للتفهّم والتفاهم إرادة.

. بعد أن ينتهوا عمَّا نهاهم الله عنه.

. بعد أن يأخذوا بما أمرهم الله به.

. بعد أن ينتهوا عن الكيد وعن إيقاد نيران الفتنة بين النَّاس.

. بعد أن يكفروا بالباطل ولا يعتدون ويظلمون.

. بعد أن تصبح الحقوق بينهم تمارس، والواجبات تؤدّى، والمسئوليَّات تُحمل.

. بعد أن ينتهوا عن أعمال الإفساد في الأرض وسفك الدِّماء فيها بغير حقّ.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم التّسامح.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم التآخي.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم التّعاون.

. بعد أن تسود قيمة الاعتبار للأفراد والجماعات والشّعوب والأمم.

. عندما لا يتمسّكوا بوجوبيّة تماثل القيم مع الواقع وكأنَّ القيم تمتلك مطلقية الثّبات؛ ذلك لأنَّ الواقع أحيانًا يتقدَّم على القيم ممّا يستوجب العمل على تقييم القيم وتقويمها لكي تواكب حركة التغيّر والتقدّم إلى الأفضل والأجود والأنفع، وفي المقابل الآخر فإنَّ الواقع قد يتخلّف كثيرًا عن معطيات القيم، ممّا يستوجب عدم الرّكون إلى الواقع المتخلّف.

ولأنَّ التوافق نُقلة هو أمل المصلحين في الأرض فلا يكون إلّا على ما هو مُصلح وهو مكمن الحلّ الذي يخرج من التأزُّمات، ولكن متى يبلغ النَّاس هذه النُّقلة؟

أقول:

إذا تطابقت النوايا مع الأعمال والأفعال وانتهت الخلافات بسيادة العدل بين النَّاس وتوافقوا على إحقاق الحق وزهق الباطل، وفي المقابل إنْ سادت المظالم بينهم وعمّت تماثلوا في ارتكاب المفاسد، ولهذا قد يتماثل

النَّاس في ارتكاب المظالم كما يتوافقون في القيام بأعمال الإصلاح والإعمار والفلاح والبناء نُقلة.

ولأنَّ أسباب الخلاف من ارتكاب المظالم، إذن لا يمكن أن ينتهي أو يزول الخلاف ما لم تنتهِ وتزل المظالم؛ لذلك فالتوافق لا يكون إلّا بين العقلاء، وهذا ما يخالف التكيّف الذي ينسحب على العقلاء وغيرهم كالمكان والأشياء التي نتكيّف معها ولا نتوافق على الرّغم من اشتراك المفهومين بمعطيات كثيرة.

ولذا فالتوافق نُقلة يقوم على الفكرة سواء أكانت مؤدّية إلى الرّفض أم القبول، انطلاقًا من مبدأ يحمل وسيلةً وهدفًا وغايةً بحيث تجعل التوافق ناتجًا عن رغبة، وهذه الرّغبة تدفع إلى بناء جسور تلاقٍ وإقامة علاقات قويّة مع الآخرين والتوافق معهم؛ بحيث تقوم على قناعة العقل مع منطقه وإقناعه بالحُجَّة والدّليل والبرهان.

ومن هنا فإنَّ القوّة التي تتخطّى غاية الرّفض من التوافق إلى التكيّف، تخرج عن صفة الرّفض إلى الإخافة التي تفرض قبول الآخر هو كما هو، ومن ثمَّ يجد الآخر نفسه في محل قبول الواقع والتكيّف معه بتقديم تنازلات تستوجبها الضرورة.

وعليه: لن يكون التكيّف هو الغاية طالما يظل قائم على تقديم التنازلات بعلل الضرورة أو الإكراه، بل الغاية نُقلةٌ هي التي تؤدّي إلى القبول والرِّضا في عملية توازن تفضي إلى المحافظة على المال والنّفس والكرامة.

ومن هنا يظل التوافق نُقلةٌ هو الغاية الإنسانيَّة؛ وذلك بتقدير قيمة الإنسان الذي من حقّه أن يقبل ويرفض، ويأمر وينهى، ويتكلّم ويعبّر، ويقرّر ويقدم على تنفيذ ما يقرّه دون أن يكون على حساب حقوق الآخرين ومجالات امتدادهم، فمن حقّه الانتقاد كما من حقّه التقييم والمحاسبة والتقويم والتصحيح والإصلاح والبناء والإعمار، ولا يجوز لأحدٍ أن يقصيه أو يحرمه من ذلك، ومن يحاول ذلك ينبغي أن يزاح من الطريق الذي لا يعبّد إلّا من أجل مستقبل الجميع نُقلة دون فرقة ولا فوارق وبكلّ معطيات العدل وأفعاله الإنسانيَّة.

ولأنَّ التوافق قيمة حميدة ومرضية لجميع المتوافقين؛ فهو المأمول الذي يعيد التوازن والانسجام بين الأفراد والجماعات والشعوب، وكلّما توافق النَّاس عدالة في وطنهم كوّنوا الوحدة الوطنية المأمولة، التي بها يتمكّنون من فرض إرادتهم، ولكن في الأوطان التي يتولّى أمرها الظّلمة أوّل ما يستهدفونه هو تفتيت الوحدة الوطنية وتقسيم الشّعب إلى طوائف وقبائل وأحزاب متصادمة حتَّى لا تلتقي على رأي واحد فتطيح بالدكتاتور وتسقط نظامه[9].

ولذا فمن أراد بلوغ النُّقلة توافقًا مع نفسه، ومستقبلة، وسيادة وطنه؛ فعليه أن يفكّر فيما يفكّر فيه دون أن يغفل عن مواجع التكيف كرهًا وسُفليَّة ودونيَّة، ودون أن يغفل عن عبر التَّاريخ التي لا اتعاظ بدون الالتفات إليها، بغاية إحداث النُّقلة التي في حاجة للعودة إلى الذَّاكرة؛

[9] عقيل حسين عقيل، تقويض القيم، شركة الملتقى، بيروت، 2011م، ص 107 – 116.

ذلك لأنَّ الذاكرة، هي: مكمن الأسرار، والقابلة لأن تنشّط وعيًا وانتباهًا، والقابلة لأن تمرّن بمزيد من المستفزّات العقليَّة والعلميَّة، وعليه.

المأمولُ:

المأمولُ هو: المفعول المراد بلوغه ونيله، وهو الذي يتحقّق ببذل الجهد، والإقدام على العمل تحدٍّ للصِّعاب، ومن ثمَّ لا يمكن نيله بلا جهدٍ يبذل.

ولذا فنيل المأمول تَمكُّنٌ مما كان مجرَّدَ أملٍ، بعد أن أصبح شاهدًا وماثلًا بين اليدين: (إنَّه العمل المنجز، والمكسب المتحقّق).

ومن هنا فزمن نيل المأمول هو المتجاوز لزمن الانتظار الذي لا بدَّ منه أثناء العمل والاجتهاد والسعي الحثيث تجاه الفوز بالمأمول، أي: إنَّه الزَّمن الذي طويت فيه صفحات الترقُّب أملًا.

ولأنَّه المأمول قمَّة، فهو المأمول رفعة على حُسن القول، والفعل، والعمل، والإنتاج، وحسن الأداء، وحُسن القيم والأخلاق، وحسن السُّلوك، وحسن قمَّة المجد، وقمَّة الثقافة والحضارة.

وعليه: الأملُ اسمٌ، والمأمولُ مفعولٌ؛ وهذا يعني: أنَّ الاسم سيظل اسمًا مجرَّدًا، أمَّا المفعول، فهو القابل للتدبُّر، والمتجسِّد في الفعل والعمل، ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يوهم نفسه بأملٍ لا يكون من ورائه مأمولٌ؛

إذن: المأمول هو ذلك الشيء أيُّ شيءٍ كان عن قصدٍ وهو المراد نيله، أو الفوز به؛ كونه مرغوبًا، ويشبع حاجة، ويرضي إرادة، ويحدث النُّقلة.

ومع أنَّ الأمل هو ذلك الشيء المضمر في الصدور أملًا، فإنَّ المأمول غير ذلك، إنَّه مشبع الحاجات المتنوِّعة والمتغيِّرة والمتطورة، أي: إنّه خارج الصدور؛ لأنَّه مشبع الحاجة من خارجها؛ فعلى سبيل المثال: السَّجين عادةً يأمل الحريَّة، ولكن سيظل الأمل معه سجينًا، هذا على مستوى الأمل، أمَّا على مستوى المأمول أن يفك قيد السجين ويخرج من زنزانته إلى الحياة متفاعلًا مع مستقبل جديدٍ، فيه تتغيَّر أحواله من سجينٍ مستهلكٍ إلى طليقٍ منتجٍ أو مبدعٍ.

ولذلك فالمأمول هو الباعث الذي ولّده الأمل فكرة حتى أصبح شيئًا يتم بلوغه ونيله؛ ولأنَّه مولود الفكر فهو للآملين مثل الوليد للآباء رعايةً وعنايةً، وحرصًا وعملًا جادًا، تحشّد الإمكانات وتبذل الجهود من أجل بلوغه، ثمّ نيله، والحفاظ عليه حفاظًا على مولود من الأصلاب، دون أن يوقف الإنجاب من بعده؛ فالابن دائمًا في حاجة لإخوة، والآباء في حاجة للأبناء رحمة، وهكذا المأمول يتولّد من الفكرة والمشاهد مأمولًا من بعده مأمول.

وعليه: فإنَّ زمن الأمل زمن الانتظار، أمَّا زمن المأمول زمن الإشباع، ولهذا فالمأمول لا ينجبه الانتظار، بل ينجبه الفكر المنظّم والعمل الجاد؛

فالانتظار لا عمل، ولا عمل يساوي نتيجة صفرية؛ ولهذا فالمأمول لم يكن المنتظر، بل المتوقّع كما هو، فإذا جعلنا المأمول منتظرًا فلا داعي للعمل؛ فهو المتوقّع الذي حُددت الأهداف من أجله، وَوَضحت الأغراض والغايات من ورائه، ورسمت الخطط والاستراتيجيات المؤدية إلى نيله.

ولأنّ المأمول لم يكن المنتظر، فهو أيضا لم يكن المرتجى؛ فالمرتجى لا سبيل لبلوغه إلّا من خلال الغير، الذي قد لا يستجيب لمطلب ولو توسّل المتوسّل، أمّا المأمول فلا انتظار ولا توسّل إلّا لله تعالى، إنّه الاعتماد على النفس، والإمكانات المتاحة، والتي يمكن أن تتاح إرادة ورغبة وضرورة.

والمأمول لم يكن الجهد المبذول، بل ما يبذل من الجهد من أجل نيله (إنّه المترتب على الجهد الذي أنتجه شيئًا ملموسًا) فالفلّاح على سبيل المثال: يحرث ويزرع وأمل الحصاد لا يفارقه، ولسائل أن يسأل:

لم لا يكون الحصاد مأمولًا؟

أقول: الحصاد جهد يبذل، وهو أمل الفلاح، أمَّا مأموله فهو أن ينال إنتاجًا وافرًا؛ فإن كان وفيرا نال مأموله، وإن كان غير ذلك فسيكون موسمه درسًا له لمواسم أكثر أملًا.

وعليه:

الأمل يحرّك الآمل ويدفعه، ونيل المأمول يطمئنه ويحفّزه على المزيد؛ فالآمل لا يقنط، والحياة الدنيا بالنسبة إليه مدرسة يجب أن يكون فيها ناجحًا ومتميّزًا إن أراد أملًا أعظم في حياة أعظم.

والمأمول وإن صّعب فنيله ممكن، شريطة القيام بعملٍ موجبٍ، مع صبر على بذل الجهد والمثابرة، ثمّ تحدّي الفشل، مع العلم أنّ الفشل لا يكون إلّا بأيدي اليائسين، ولا يكون إلّا عن إرادة منهزمة لشخصيَّة لا تقبل التحدّي، وهذا لا يعني: أنّ المأمول صعب المنال، بل يعني: فقدان العزيمة (تصميمًا وإصرارًا) على حياة أفضل، والعزيمة لا تمنح، ولا تشترى، بل هي تستمدّ من العقل الذي يفكّر في أمره، وتحسين أحواله وضمان مستقبله، وهذه لا تكون إلّا بيد العقلاء، فمن له عقل لا يليق به ألا يستثمره ويوظفه فيما يفيد شخصه، ومن لهم علاقة به؛ فالذي اختار أمله غزو الفضاء، قد اختار الصّعب تحدّ، فبلغ الفضاء غزوًا ومأمولا، ومن ثم ثبت لنا أنّ الصّعب لا يصمد أمام المتحدّين، أي: إنَّ الصّعاب لا تستسلم إلّا على أيدي المتحدّين؛ ولذا فلم لا نتحدّى؟

فالمأمول مع أنَّه باعث خارجي (خارج الفكرة) فإنَّه لا يكون إلّا خلقا أي: خلق (الشيء ولا شيء)، أو أن يكون مولود الفكرة؛ فعقل الإنسان لو لم يفكّر ما أنتج الفكرة، ولو لم يكن مستبصرًا ما ولّد من المشاهد فكرة.

المأمول يتعدّد ويتنوّع وفقا للحاجة والمطلب، وهو لا يُبلغ إلّا عن إرادة وجهد يبذل مع القبول بدفع الثمن، وقد يكون المأمول خاصّا وفقا للحاجة والشهوة وهو كثيرٌ، وقد يكون عامًّا؛ كونه مأمولًا عظيمًا، وكلّ مأمول عام فيه منافسة، وقد يكون عليه الصراع، فرئاسة الدّولة مأمولة عند كثيرين، والمنافسة الحرّة وفقًا للدستور وحدها الحاسمة، ولكن لا يمكن أن يكون الرّئيس للبلد إلّا فائزًا واحدًا. ومع ذلك بعض النَّاس قد يحترم نتائج الدستور، وبعضهم قد لا يحترمها؛ فتنقلب المنافسة الحرّة إلى صراع دام، وهنا تكمن العلّة، وقد تحدث الانقلابات على الدّساتير كرها، وهذه في معظمها أساليب لا تُحترم عند أهل الثقافة.

ولأنّ الانقلابات لا تكون إلّا كرها؛ إذ لا دستور، فهي تحمل عناصر فنائها فيها ممّا يجعل بعد كلّ انقلاب انقلابات.

والتعليم مثال آخر على المأمول العام: فهو مع أنَّه عامّ، فإنَّه لا يكون على حساب أحد، وفيه يتنافس المتنافسون.

أمّا الفوز بالجنة فيعد المثال الأعظم للمأمول العام، ومع أنَّها مأمول عام، لكنّ بلوغها والفوز بها لا يكون إلّا خاصّا؛ لأنّ نيلها نيل مكانة، مكانة تستوعب الجميع دون أن يكون أحدٌ على حساب آخر. وهنا لا مقارنة بين مكانة رئاسة الدولة التي لا تشغل إلّا مفردة، ومكانة أعظم

تستوعب ما خلق مأوى ونعيمًا ومتعة، قال تعالى: {يَا قَوْمِ اعملوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ}[10].

ولهذا فالجنّة مأمولٌ ولم تكن أملًا، فالأمل مولود الفكرة، أمّا الجنة فخلق الخَالق، وهي متاحة لمن يشاء ويعمل من أجل نفسه ونيلها فوزا مع الفائزين.

ومع أنَّ المأمول عام (الجنة)، فإنَّ نيله لا يتم إلّا بجهد خاصّ؛ لأنّ العلاقة بين المخلوق المجازَى بها والخالق المجازِي بها علاقة خاصّة.

أمَّا إذا كان المأمول عامّا والمطلب أيضا عامّا؛ فالمثال الذي يمكن سوقه افتراضا: أنّ دولة ما قد تمّ احتلالها من الأجنبي، ففي هذه الحالة لن يكون لمواطنيها مأمول إلّا تحريرها، ومن هنا يصبح المأمول العام مطلبا عاما؛ ولا أمل للشعب كلّه إلّا تحرير وطنهم، فيعملون كلّ ما هو ممكن، حتى يتحرر كما أملوه مأمولًا.

وهناك ما يماثل هذه الأمثلة، من حيث إنَّ المأمول جمعيًّا والنَّوايا فردية؛ كالقيام بفريضة الحج المأمولة من المسلمين، غير أنَّ تأديتها لا يؤسّس إلّا على النيّة، وهذه لا تكون إلّا فردية، وكأنَّ الفرد حاج بمفرده، فينوي بنفسه حجّا، ثمّ يتقدّم مع الحجيج لأداء الأركان الأخرى، ومن هنا يندمج الأنا في الذّات العامّة.

[10] الأنعام 135.

ولسائل أن يسأل:

- أين الأمل في هذا المثال؟

أقول: الأمل: تلك الحيويّة التي هيأت المسلم لإعداد العدّة استعدادا وتأهبا حتى قام بأعمال الحج وناله من بعد غاية.

والآمل: المسلم المقدِم على أداء فريضة الحج.

أمّا المأمول: القيام بالفريضة على أتم وجه.

فالحج مع أنَّه مأمول عظيم لدى المسلمين؛ فإنّه يعدُّ عملًا يجب القيام به من أجل مأمول أعظم (الجنة) حيث النعيم الدّائم، أي إنَّ المسلمين يميزون بين النّعمة والنعيم؛ فهم يعرفون أنَّ الدنيا بيت النعم المتعددة والمتنوّعة، وأنّ الآخرة بيت النعيم الدّائم، وللتمييز: النعم فيها الأذواق تتعدد، وتختلف، وتنقطع، أمّا النعيم فلذَّةٌ دائمة لا تنقطّع، ولا يختلف عليها، ولا يتخالف، أي: إنَّ الجنة فيها النعيم بذاته، أمّا الدنيا فيها النعم تتحوّل فضلات. وهنا الفرق كبير بين النعيم لذة لا تنقطع ولا تنقص ولا تنتهي ولا يتعفّن نعيمها، وما يترك زبالة تشمئز الأنفس من رائحتها النتنة.

وعليه فإنَّ المأمول المطلق هو الفوز بنعيم الجنَّة، أمَّا ما دونه فهي مأمولات في دائرة الممكن؛ ولهذا فالمأمول هو: المقصود في ذاته دون سواه، ليتم نيله استجابة لأمل عن رغبة، سواء أكان نسبيًّا أم مطلقًا.

المأمول لا يكون إلّا معلومًا، والقصد إليه ثابتٌ، وإن أخذ العمر كلّه، فالمهم أن يبلغ وينال؛ فساعة نيلة وكأنّه لم يقض ما انقضى من وقتٍ، وساعة نيله وكأنّه كان غير متوقّعٍ على الرّغم من توقّعه.

وعليه فالمأمول:

. لم يكن خيالًا مجرّدًا.

. إنَّه نتاج العمل الجاد.

. يتم نيله والفوز به.

. يفتح آفاقًا جديدة أمام الآملين.

وعلى الآملين:

. التفكير الجاد؛ حتى يولّدوا من الفكرة فكرة.

. التعلّم؛ حتى يتعلّموا كيف يتعلّمون.

. أنْ يرفضوا؛ حتى لا يكون الرّفض غاية.

. أنْ يتقبّلوا دون أن يكون التقبّل مذلّة.

. أن يحترموا، حتى لا يصبح الاحترام جبنًا.

. أنْ يتفهّموا ظروف الغير دون أن يجعلوا مأمولاتهم على حسابهم.

. أن يتكلّموا دون أن يصبح الكلام ثرثرة.

. أن يستوعبوا قبل أن تخلط الأوراق.

. أن يحاججوا؛ كي لا تتسع دوائر التُّبع.

الأمل يسبق المأمول صُنعًا:

ولأنَّ المأمولَ باعثُ خارجيٌّ، وزمن حدوثه المستقبل المنتظر توقُّعًا، فهو بهذه الصورة لا يمكن نيله إلَّا بحيوَّية الأمل التي تبعث في الإنسان روح البحث والسعي الجاد من أجل ملاحقة مأمولٍ كان مفترضًا، وسيضل المأمول مفترضًا حتى يتم بلوغه أملًا.

وعليه: فالأملُ حيويّة تملأ النَّفس تطلّعا تجاه المأمول رغبة؛ حيث لا يأس ولا قنوط؛ وهو نتاج عزيمة الآمل وإرادته تجاه ما يمكن إنجازه، وفقًا لخطة مرسومة، وإمكانات مُعدَّةٍ، مع وافر التهيؤ والاستعداد والتأهّب للعمل الجاد.

والأمل لم يكن نتاج صدفة، بل نتاج حسن تدبّر عن وعي بعد تفكّر فيما يجب، وتذكّر لما كان غير مرضٍ ولا مقنع، وتطلّع لمستقبل مأمول فيه الأفضل والأجود والأفيد والأنفع والأرفع ارتقاء.

ومن ثمّ فالأمل كونه حيويَّة دافعة تجاه المأمول، هو استنتاج معرفي بعد قراءة واعية لما يجري، وما ينبغي أن يؤخذ تجاهه وفقًا للقوّة المعدّة لمواجهته، وتجاوز ظروفه ومعطياته.

ولأنَّ الأمل قيمة رفيعة، فهو إن لم تبحث عنه وتسعى إليه لا يمكن له أن يبحث عنك ولا يسعى إليك، وإن أردت مصاحبته فعليك بقبول التحدّي، وإلّا لا داعي للّعب في ميادينه الفسيحة، فإنْ كنت ضيق الصّدر وقاصر الرّؤى؛ فعليك بنفسك أوّلًا؛ حتى تخلّصها مما ألمّ بها من همومها وتزيح من أمامها ما وضع من عوائق، هذا إن رغبت أن تبني لنفسك صرحا من الأمل، وإن لم تفعل ذلك فليس لك إلّا التوهّم والحلم والتمني، فتوهّم، واحلم، وتمنى ما شئت؛ إذ لا يقظة في المقابر.

إنَّ للأمل علاقات مع الزّمن والمأمول فيه في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ ولهذا وجب على الآمل أنْ يستقرأ ويستنبط ما هو ممكن بعد التفاتةٍ منه إلى الماضي؛ بغاية أخذ العبر، واستيعاب المواعظ، ثمّ يقف عند حاضره؛ لحصر ما لديه من إمكانات، وما يمكن جمعه لإدارة تروس العمل الممكّن من بلوغ المأمول رغبة.

والأمل كونه شعورًا حيويًّا مَكْمَنُ الثّقة في النَّفس المتطلّعة إلى المأمول حتى تناله نتيجة مرضية؛ فالآمل لا يقفز على الزّمن بقدر ما يراه ضرورة لنضج الثمار المستهدف جنيُها، فيعمل من أجل سلامة نضجها حتى تستوي رطبا.

ومن ثمّ فالأمل يحتوي الزّمن من أجل بلوغ المأمول ونيله بلا ملل، والآمل لا تضيق نفسه من الزّمن، الذي يجب أن يكون حاضرا والمأمول لا يفارقه، بل نفسه تضيق إن لم يعمل عبر الزّمن من أجل نيل ما يأمله.

ولأنَّ الأمل يحتوي الزّمن وكأنّه مسافة تستوجب العبور؛ فلا يمكن لآملٍ أن يرى الزّمن عائقا ولا سالبا، بل يراه من موجبات تحقيق الأمل ونيله؛ ولهذا وجب على الآملين حساب الزّمن وإدارته وفقا للأهداف والأغراض والغايات الكامنة من ورائها.

والأمل لا يمكن أن يكون إلّا في الزّمن الحاضر، وفي المقابل المأمول لا يمكن أنْ يكون فيه، فهو بالنسبة إلى العموم لا يكون إلّا في الزّمن المستقبل، ولكن بالنّسبة إلى الخصوص فهو في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ومن هنا يمكن أن يكون المأمول في المستقبل، ويمكن أن يكون في الماضي؛ ولهذا فهم يسعون من أجل بلوغه ونيله أينما كان، فلو كان على سبيل المثال: المأمول هو الجنّة، فهل الجنة تقع في الزّمن الحاضر أم أنّها في الزّمن الماضي؟

أقول:

مع أنَّ الأمل بالنّسبة إلى بني آدم يرتبط بالمستقبل، فإنّه بالنّسبة إلى آدم يرتبط بذلك الماضي الذي كانت فيه الأرض والسّماوات رتقًا؛ ولهذا فالأمل بالنّسبة إلى آدم هو العودة إلى تلك الجنّة التي فُقدت في لحظة غفلة.

ومن هنا فالأمل مع أنّه من حيث المفهوم واحد، فإنَّه من حيث الدّلالة ليس كذلك؛ ولذا وجب التفكير في الزّمن وضبطه بين ماضٍ لن يعود، وماضٍ يأمله آدم وبنوه الذين يعتقدون أنّ الجنّة حقيقة على قيد

الوجود؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه قبل أن تُفتق الأرض من السّماوات، ظلّت هناك في علوٍّ، أمّا الأمل فظل منقطعا على الأرض التي أهبط بها ومن عليها من المختلفين والمتخالفين دنيا، ومن ثمّ، فلا ينبغي أن يكون التفكّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما، ويمثلان له قاعدة تأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول.

ولأنَّ الخلق فعل الخالق؛ فهو المتحقّق على المشيئة دون رأي لمخلوق في خَلقه، وهنا تكمن الكينونة، التي وجُدت المخلوقات عليها هي كما هي، ومع أنَّ الخَلق مؤسّس على فعل الكينونة (كن)، ولكن للصّيرورة وجودٌ أيضًا؛ فأبونا آدم وزوجه اللذان خُلقًا بكينونة الإنبات من الأرض، خُلقا في أحسن تقويم، الذي فيه صَنعة الحُسن لا تتغيّر.

أمّا الأخلاق والقيم والفضائل فتكتسب وتُعلّم، وتتجسّد في القول والعمل والسّلوك، وقد لا تتجسّد، وهنا تكمن العلّة، التي تؤدّي بمن يتخلّى عن القيم والفضائل إلى الانحدار والدّونية، التي لا تليق بمن خُلق على الارتقاء قمّة.

ولذلك ظلّ آدم وزوجه على الرّفعة الخلقيّة حتى أقدما على عمل المعصية؛ فانحدرا هبوطا من تلك الجنّة على الأرض الدّنيا، التي جُرِّدت من الصّفات التي كانت عليها عُليا.

ومن هنا أصبح الصّعود للقمّة مطلبًا وأملًا لمن فقد تلك المكانة، وبقي الخَلق الحَسن على ما هو عليه حُسنا، ولكن الأخلاق أصبحت على الاهتزاز تتبدّل من حَسنٍ إلى سيء، وكذلك من سيء إلى حَسن؛ قال تعالى: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[11]. فآدم وزوجه شاءا أن يؤمنا وأمل العودة إلى تلك الجنّة لم يفارقهما، ولكن بنيهما اختلفوا، بل تخالفوا على ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الدّونية، حتى بلغ الاقتتال بينهم أشدّه.

ولأنَّ العقل مكمن الفكرة، فهو منبع الأمل، ومع أنَّهما معًا من إعمال العقل وفي محفظته، فإنَّ الأمل يتعلّق بالغايات الخارجيَّة، التي في دائرة الممكن لا تُبلغ إلّا تخييرا وإرادة؛ فمن يمتلك الإرادة يستطيع الاختيار الممكّن من التدبّر وحمْل المسؤوليَّة، ومن لا يمتلكها، فإشارة قف لا تسمح له بالعبور إلى ضفاف الارتقاء الممكن من نيل الأمل قمّة.

ولذلك فالنّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ يعملون على إنجازها أو تحقيقها، وبلوغ الغاية التي من ورائها، مع العلم أنّ الزّمن بين تحديدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام، وهذا يعني: أنّ زمن تحديد الأهداف لم يكن هو زمن تحقيقها ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع أنَّ الزّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماضٍ، وهو في ذات الوقت بالنّسبة إلى إنجازها أو بلوغها لا يعد إلّا

[11] الكهف 29.

مستقبلًا، وهو الذي يوم بلوغه يصبح حاضرا وكأنّه لم يكن من قبل مستقبلًا.

ومن ثمّ فتلك الجنّة بمقاييس زماننا هي ماضٍ، ولكن إن سلّمنا بذلك، ألا يعني أنّ الماضي سيظل ماضٍ ولن يعود؟ وإذا كان كذلك، فلا أمل فيه، ممّا يجعل التسليم به، وكأنّنا نقول: لا وجود للجنّة في المستقبل.

ولهذا فمن يعمل، ثمّ يزداد نموًّا وارتقاء؛ فلن يبلغ جنّة غير تلك الجنّة التي هي حاضر آدم وزوجه، وهنا نقول:

إنّ الماضي المأمول هو المستقبل بعينه، فمن شاء بلوغه فليعمل على مستقبل يربطه بالماضي ارتقاء؛ ولكن هذا لا يعني الاجترار، ولا يعني الالتفات إلى الوراء، بل يعني: التقدّم تجاه المأمول نشوءًا وإبداعًا منتجا لكلّ جديد مفيد يرتقي بالنّاس إلى تلك الجنّة، وحيث ذلك الماضي الذي خُلقت فيه الأزواج، والتي كان آدم وزوجه على رأسها في أحسن تقويم (قمّة).

فالزّمن متَّصلٌ بلا فواصل، وما يسمى بالماضي والحاضر والمستقبل، لا تزيد عن كونها فواصل من عندنا، وليس من عند الزّمن؛ فالزّمن هو الزّمن حاضرًا، ولكن الأحداث التي تقع فيه تفصل بينها الأيّام التي بها تعد السّنين، وفيها تُصنّف الأعمال بين من ثقلت موازينه من أجل العودة إلى تلك الجنّة أملا وارتقاء، ومن خفّت موازنه انحدارًا؛ حيث لا أمل له في ماضٍ لم يأمله مستقبلًا.

ولذا فَخَلْقُ الكون مُرتقًا، ونشوء آدم وزوجه فيه ارتقاء، ثمّ انحدارهما منه والأرض هبوطًا، لا يلغي في دائرة الممكن أمل العودة إلى ذلك الكون متى ما تمّ رتقه كما كان أوّل مرة: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[12].

يُفهم من هذه الآية أنَّ الخَلقَ والنشوء قد أوجدا كونًا أوّلا (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، ثمّ أصبح الارتقاء فرصة، ولأنَّه فرصة فلا ينبغي أن تضيع من أيدي من سُنحت لهم؛ ولهذا فأوّل المغتنمين لها استغفارًا وتوبة كان آدم عليه السّلام؛ فتاب الله عليه بأمل العودة إلى حيثما كان عليه قمّة.

وبما أنَّ الارتقاء لا يكون إلّا حيثما توجد القمّة المأمولة؛ إذن فلا ارتقاء إلّا إلى حيثما هي كائنة، ولأنّها قمّة كائنة وجودًا فهي وجود سابق على من يرغبها أملًا لاحقًا، ومن هنا فالزّمن ليس هو ما نأمله، بل الذي نأمله ما يحتويه الزّمن وجودا؛ ولذلك فالزّمن هو الزّمن، فحيثما كان الماضي يكون المستقبل حاضرا.

فالكون الذي كانت بداية الخلق منه حاضرة، هو الكون الذي ستكون نهاية الخلق إليه حاضرة، أي: لا وجود لشيء إلّا في حاضرٍ. وبما أنَّ خلق الكون مُرتقا كان البداية، إذن: فالنّهاية لا تكون إلّا برتقه ثانية، (ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ)، التي لا يمكن لنا معرفة كيفيّتها؛ لأنَّ أمر

[12] العنكبوت 20.

معرفة الكيفيَّة ا مستحيلٌ، ولأنَّه أمر مستحيلٌ؛ فهو خارج دائرة الممكن الذي لا فسحة لنا إلّا في ميادينه.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع؛ فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة، ولأنّه كذلك؛ فالأمل لا يفارقه؛ ولهذا فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد العلمي والمعرفي، والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالغاية بالنّسبة إلى من تدبّر أمره في حاضره ارتقاء هي بلوغ ما هو أعظم منه ارتقاء؛ ولهذا فعليه أن يفكّر فيما هو أعظم، وعليه أن يعرف أنّ بلوغه ممكنٌ؛ فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، مهما عمل من الأعمال الحِسان؛ فهو يعلم أنّه بالإمكان بلوغ ما هو أحسن منها؛ ولهذا فلا ينبغي أن يتوقّف نموّا، بل عليه أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف أنّ العمل ارتقاء وحده يطوي الهوة بين الأمل والآمل والمأمول والحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

أمَّا التفكّر ارتقاء فهو الذي لم يكن منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبطٌ بهما، ويمثلان له قاعدة التأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول.

ولأجل النّهوض ارتقاء؛ وجب المزيد من البحث العلمي الممكِّن من المعرفة الواعية التي بدورها تُمكّن من الإسراع في طي الهوة بين المأمول

والآمل؛ وذلك بما يطوي مشاعر الخوف طمأنينة، ويخلّص من الحيرة حلّا بعد تأزّم، فالبحث العلمي ارتقاء يستوجب أسلوبًا مرنًا، وطريقة تستوعب التَّاريخ تجربةً ومنهجًا ووسيلةً.

ولأنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم فليس له بدٌّ إلّا المحافظة على حُسن تقويمه، وهذه قاعدة، ولكن إن انحدر استثناء، وبأيّة علّة فليس له إلّا النّهوض، وهذه قاعدة أيضا، أمّا الاستثناء في ذلك ألا ينهض.

إنَّ الفكر الإنساني الطّموح لا يستهين بالزّمان، بل يعطه قيمة؛ ويثمّنه ساعة بساعة، خوفًا من أن تزداد الهوة اتساعا بينه وبين الأمل المرتقب؛ فهو يخاف الزّمن، وبخاصّة المستقبل منه؛ ذلك لأنّه يجهل ما يُخفيه، ومن ثمّ فلا يثق فيه، كما أنّه لا يثق في الماضي والحاضر؛ لأنّ الماضي قد تركنا دون أن يتأسف علينا، ولا على الماضيين، وكذلك الحاضر مصرّ على ذلك بتنازله عنا برهة ببرهة، ولا يودّ الاستمرار معنا؛ ولهذا فالثّقة تنعدم في الزّمنين (الماضي والحاضر)، ممّا يجعلنا لا نقصُر تفكيرنا عليهما إلّا لأخذ العبر والمواعظ.

ولذا ينبغي أنْ نفكّر في غيرهما، ولا غير لهما إلّا المستقبل، الذي هو الآخر قد يغدر بآمالنا إنْ لم نَحتَط من غدره؛ ولهذا فلا ثقة في الزّمن، بل الثّقة في العمل؛ فلنعمل على مكانتنا إن شئنا مكانة، ودون تقصير في العمل؛ ذلك لأنَّ التوقّف أو حتى التقصير قليلا يؤخّرنا كثيرا، وعلينا الأخذ بالمناهج التي تُمكننا من الارتقاء بعد أن تعلّمنا كيف نتعلَّم؟ وكيف نفكّر

فيما نفكّر فيه؟ وكيف نولّد الحُجّة من الحُجّة؟ وكيف نكتشف أخطاءنا؟ وكيف نصلحها أوّلا بأوّل؟ وكيف ننتقل من التوقّف عند حدود الإصلاح إلى بلوغ الحلّ؟ ومن ثمّ؛ فعلينا ترك تلك المناهج التي تُبلغنا أو تُعلِمُنا بما عَلِمت به، ولا تُحفِّزنا على الارتقاء.

وعليه:

ينبغي أنْ نفكّر بعمق؛ حتى لا تضمر ذاكرتنا، وأن نقارن بين الدّقيق والأدق منه؛ حتى تنشط عقولنا، وتستعيد عافيتها التي تمكّنها من التفكير المتوقّع وغير المتوقّع ارتقاء؛ فالعقول دائمًا في حاجة لأن تُمرّن؛ حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتُمكّنه من ملاحظة الآخرين وما يدور من حولها.

ومن ثمّ؛ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم، حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاء؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه؛ حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى نفسه تفكيرا حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ، يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها

الغفلة وسيّرتها الشّهوة؛ ولهذا فالفكر ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى يفكّروا في غيره.

والارتقاء أملًا لم يكن نتاج العاطفة، بل هو نتاج حسن تدبّر لصناعة المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، والممكّن من بلوغ الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة؛ فينبغي أن يرتقي الإنسان علما ومعرفة وخُلقًا، وأسلوبًا، وإلّا سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والحكمة؛ فهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويَشَدُّونهم للخلف ممّا يجعل الفارق كبيرا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، والحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلّعة ارتقاء.

وحتى أقرّب مفهوم الأمل، أسوق الأمثلة الآتية اختصارًا:

. أمل الجاهل أن يتخلّص من الجهل؛ فيتوجه إلى من يعلّمه، وأمل العاطل الحصول على فرصة عمل؛ فيسعى حتى يبلغه، وأمل المريض العلاج فيتوجّه إلى الطبيب، وإن أراد شفاء فليسأل الشافي؛ وتوضيحًا لذلك أقول: (الشفاء) أمل المكسور أن يجبر شفاء، وهنا لا جبّار شافيا للكسر إلّا الشافي جلّ جلاله، ولكن كيف يكون ذلك على يد الطبيب (المجبِّر)؟

تجيب قاعدة جبر الكسر بالقول الآتي:

بما أنَّ الجبَّار هو القادر وحده على جبر العظم المكسور إلى حيثما كان عليه، إذن: ما يقوم به الطبيب أو الجبّار بالإضافة هو جعل العظام المكسورة في حالة ملامسة لبعضها بعضا، مع تثبيتها بموضوعية في الاتجاه السّليم؛ لإعادة جبرها على الحالة التي كانت عليها قبل أن تتعرض للكسر، وقد يظن بعض النَّاس أنَّ الطبيب يستطيع أن يجبر العظام بما يقوم به من جهد فني وإنساني، والحقيقة أنَّ ما يقوم به الطبيب هو جعل أطراف العظام في حالة ملامسة وعلى حالة من الثبات، أمّا عملية الجبر فلا تتم إلا بنمو العظام في اتجاهها الذي بَذل الطبيب جهد التثبيت بشأنه؛ فالعظام لا تُجبر إلا بقوّة تجعلها في حالة امتداد يتمكّن من خلاله كل متجزئ من ملامسة المتجزئ الآخر، والالتفاف حوله حتى تتمّ عمليات الجبر مع المتجزئات الأخرى، ومن ثمّ مع الأجزاء التي نمت بترابط المتجزئات في اتجاه جبر الكتلة الواحدة التي تجعل العظام في حالة تماسك وقوّة كما كانت عليه أوّلا.

وبالتالي فإنَّ ما يقوم به الجبّار بالإضافة (المجبّر) لا يزيد عن كونه عملية توكُّل على الجبّار الأعظم؛ حتى يعود العظم مجبورا على ما كان عليه قبل الكسر؛ ولذا فإنّ القاعدة تقول: (اتصال مؤقّت من الجبّار بالإضافة يؤدّي إلى اتصال دائم من الجبّار الدّائم).

إنَّ ما يقوم به الطبيب من جهد مؤقّت في سبيل توصيل العظام المتباعدة بالكسر إلى بعضها هو الجهد المؤقّت، أمّا الاتصال الدائم فهو

الذي يتم بأفعال الجبّار الدائم؛ إذ تنمو أمشاج العظام، وتمتد إلى أن تتصل وتتماسك في وحدة واحدة بقوّة الواحد الجبار.

فالعظام لا تجبر إلا بطينتها المنبعثة الحياة فيها، وهذه الطينة وإن وجدت بين يدي الطبيب فإنَّ الحياة لن توجد فيها، فالحياة ديمومة منبعثة لا توجد إلا بيد الحي الدائم، أمّا الحي بالإضافة فكل ما بيده مؤقت؛ ولهذا ما يقوم به من جهد في سبيل تجبير العظام هو جهد مؤقت؛ ولأنّ العظام لا تلتئم إلا بجهد دائم؛ لذا فإنّ التآمها لن يكون إلا بقوّة الجبّار الدائم، فالعظم بعدما يكسر تنفصل الحياة عن جزئه المنفصل عنه، ولأنّ انبعاث الحياة بيد الحي الذي لا يموت؛ إذن: إذا انكسر العظم وفقد انبعاث الحياة فيه فمن هو القادر على إعادتها إليه؟

إنّه الجبار الذي بيده أمر الحياة والموت؛ ولهذا فدور الطبيب أن يجعل العظام المكسورة في حالة تلامس وثبات، أمّا الجبر فليس من مهام الطبيب، قال تعالى: {وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[13]، وكلمة (ننشزها) نجبرها وحدة واحدة بانبعاث الحياة فيها، حتى تصبح قواما تامًّا للهيئة المناسبة لها ثم نكسوها لحما[14].

---

[13] البقرة 259.

[14] عقيل حسين عقيل، موسوعة أسماء الله من وحي القرآن، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، دمشق بيروت، 2009م، ص 374.

وكل شيء على الله يسير فهو الذي أنشأ العظام أوّل مرّة من تراب، وهو الأصعب على مستوى التفكير الإنساني، فما بالك بأن يجبرها بعد أن تكسر وهو الأيسر!

ولأنَّ الجبر خلاف الكسر فإنّ الجبّار تعالى يجبر المستقل مع المستقل عنه في علاقة اتصال؛ ولهذا لا أمل في شفاء مخلوق إلّا برضاء الخالق.

ولسائل أن يسأل:

ما علاقة ذلك بالأمل؟

أقول:

إنَّ الأمل في دائرة الممكن يستوجب عملًا وجهدًا يبذل، أمّا الأمل خارج دائرة الممكن فهو لا يكون إلّا معجزة أو مستحيلًا؛ فالممكن هو الذي نأمله ارتقاء فنعمل عليه؛ اعتمادًا على جهدنا، وإمكاناتنا، وحسن تدبّرنا، أمّا المعجز: فلا يكون إلّا على أيدي الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وهؤلاء ختموا بمحمّد عليه الصّلاة والسّلام، أمّا المستحيل فلا يكون إلّا بأمر الله (كن)، وهو الأمر الذي يجعل العظم مجبورًا.

ومن ثمّ، ينبغي أن يكون الأمل عملًا ودعاءً؛ عملًا يُقدم عليه مع وافر العزيمة ولا قنوط، وعملًا من ورائه لا يبلغ إلّا عبادة، وهنا يكمن الدّعاء (دعاء السّميع القريب المجيب القادر).

وعليه فالأمل لم يكن الرّجاء ولا التفاؤل؛ ذلك لأنَّ الرّجاء توسّلي، وفيه من المطامع ما فيه، ومن يتكئ عليه يجد نفسه معتمدا على غيره؛ ممّا يجعله على استعداد لتقديم التنازلات رجاء.

أمّا التفاؤل فهو انطباع توقّعي استبشاري لمستقبل ما، ولكن الاستبشار قد لا يزيد عن كونه انطباعا نفسيّا مُرضيا لأصحابه؛ لأنّ مفهومه لا يحتوي الإصرار والعزيمة على بلوغ المستبشر من أجله؛ ولذا فهو شعور لا يشترط عملًا ولا جهدا يبذل.

أمّا الأمل: فله من المعطيات والمؤشّرات ما يثبت وجود المستهدف من ورائه؛ ولهذا فلم يكن شيئا متخيلا، بل احتمالات بلوغه في دائرة الممكن متوقّعة، وهو يستوجب عملًا وجهدا يبذل في سبيل بلوغه مع تصميم وعزيمة دون يأس، مع رسم الخطط الممكِّنة منه.

فالأمل لم يكن مجرّد شعورٍ في ذاته، بل هو ذلك الشّعور المملوء طموحا، وهو المرتبط بالزّمن وما يُسجّل في صفحات التاريخ، وهو المتعلّق بما يُمكِن إنجازه، أو تحقيقه، أو بلوغه ونيله.

فالحياة بلا أمل حياة بلا طموح وبلا مستقبل؛ إذ لا مُحفّز على ما يُمكن أن تبذل الجهود من أجله، فالأمل حيويّة منبعثة تُمكّن من طي المسافة بين الرّغبة والمأمول نيله.

ولأنَّه الأمل؛ فهو المستمدّ من منابعه التي يتولّد فيها فكرة من بعد فكرة، والأمل يتطوّر دون توقّف، وهو المتجاوز بأصحابه أسقف التفكير المحدودة إلى تلك التي تُفتح آفاقها أمام المتأمّلين في المشاهد والمجرّد حتى بلوغ معرفة المستحيل مستحيلًا، والمعجز معجزا. كما أنّ الأمل في دائرة الممكن يتحدّى بالآملين الصّعاب، ويدفعهم إلى ما من شأنه أن يُمكّن من بلوغ أعمال الخوارق.

ومع أنَّ مفهوم الأمل من حيث المعنى معلوم، ولكنّه من حيث الفعل يرتدي ثوب التنكير، وسيظل منكرا حتى يفصح أصحاب الأمل عمّا يأملون، أي: سيظل الأمل في ذاته أملا حتى يتجسّد فيما يودّ نيله.

ومن ثم فالحياة الأمل لا يهدّدها الزّوال، وهذه لا تُبلغ إلّا إذا تجسّد الأمل عملًا محفّزا بالرّغبة والإرادة؛ ولهذا فمن يعمل من أجل بلوغها يصنع لنفسه أملا لا يموت حتى يورّثه لمن خلفه.

أمّا الإنسان الآمل؛ فهو الذي يولِّد من الفكرة فكرة تخرجه ومن معه من التأزّمات، وتصنع لهم مستقبلًا يحدث نقلة تمكّنهم من عمل الخوارق؛ حتى يعرفوا أنّ المعجز معجزٌ.

ولذلك فالواعون دائمًا هم السبّاقون والمبادرون بصناعة الأمل، الذي يقرّبهم من رتق الأرض بالسّماء ارتقاء.

وعليه:

. فكّر فيما يجب قبل وجوبه؛ حتى تكون سبّاقا قبل غيرك.

. اعرف أنّ الأمل لم يكن غاية، بل الغاية بلوغ المأمول؛ فاعمل من أجله إن أردته حقيقة بين يديك.

. تحدّى كلّ محيّرٍ حتى تتجاوزه معرفة، وتصبح السُّبل أمامك بلا عوائق ولا معيقين.

. اصنع أملا؛ فالأمل لا يصنع نفسه، ولا يأتيك من الغير، واعرف أنّ المسافة بينك وبينه وإن كانت بعيدة فهي غير مستحيلة.

. فكّر في نفسك؛ حتى تستكشف نقاط ضعفها؛ لتتجاوزها قبل أن يشار إليك من الغير بما يمكن الإشارة به إليك إحراجًا.

. اعمل بحيويّة وتفاعل إن أردت القضاء على الملل الحائل بينك وصناعة الأمل.

. عرّف من لك علاقة بهم أنَّ الصّعوبات لا تصمد أمام الصّامدين في سبيل تحقيق آمالهم، وحفّزهم على التحدّي؛ ذلك لأنَّ قبول التحدّي لما يؤلم يمكّن من بلوغ ما يدخل البهجة.

. تجاوز بهم قصور التفكير عند المتوقّع رتابة إلى غير المتوقّع الذي تملؤه الحيويَّة بما يرشد إليه من جديد أكثر وضوحًا.

. لا تصدّق ما تسمع؛ فإنْ صدقت ما استمعت إليه وكأنّه المسلّمات فقد تقع في السُّفلية والدّونيَّة كما وقع فيها أبونا آدم عليه السّلام حينما غرّر به إبليس؛ فكانت النتيجة مؤلمة (خروجه وزوجه من الجنّة).

. تأكّد أنّ وراء كلّ هدف أهدافًا أخرى لا يمكن أن تعرف إلّا بعد إنجاز ما قد حدّد هدفا.

. تأكّد أن وراء كلّ هدف من الأهداف التي تمّ تحديدها غرضًا ووراء كلّ غرض أغراض جديدة.

. تأكّد أنّ وراء الأغراض غايات، ووراء الغايات غايات أعظم منها؛ فلا تملّ ولا تقنط.

. تأكّد أن التقدّم خطوات؛ فأسرع تقدّمًا دون التسرّع.

. اعمل على صناعة الأمل؛ فالأمل يصنع بلا يأس.

. تأكّد أنَّك على القوّة، ولكن عليك بمعرفة أنّ قوّتك لن تخرج عن دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع)؛ ولهذا فلا إطلاق لقوتك؛ ومن هنا يكون الضّعف والوهن الذي يستوجب الاستعانة بالغير؛ لاستمداد أفعال القوّة الممكّنة من إنجاز ما يفوق القوّة الفردية؛ ولذلك فالآمال العظام تحتاج لتكاتف الجهود، ولا استغراب.

. الأمل دائمًا لا يتحقّق إلّا بتهيؤ الآملين تهيؤًا نفسيًّا وعقليًّا وبدنيًّا وصحةً وتعليمًا وتأهيلًا وتدريبًا؛ فعليك بمزيد من ذلك إن أردت بلوغ آمال عريضة.

. اعرف أنّ الأمل لا يأتي إليك أبدا، بل الأمل تسعى إليه؛ فأسع فهو ممكن التحقّق، ولكن عملًا.

. بلوغ المأمول يستوجب عدّة وإعدادًا لها فعليك بإعداد العُدة الممكّنة من بلوغ المأمول.

. الأمل يستوجب حوافز ودوافع؛ حتى لا يتسلّل الملل إلى العقل والقلب والنّفس البشرية، وخير الحوافز والدّوافع (الرّغبة)؛ إذ لا عمل ولا أمل بلا رغبة؛ ذلك لأنّ الأعمال والأمل من دونها تصبح أمنيات ليس إلّا؛ ولهذا فالأمنية شيء لا يستوجب الإقدام عملًا، أمّا الأمل فلا يكون إلّا والعمل أداته تخطيطا وتنفيذًا مع وافر الرّغبة.

. الأمل يستوجب الاستعداد إليه تأهُّبًا وعدة وإعدادًا، ومن ثمّ استعدادا يُمكن الآمل من بلوغ أمله.

. الأمل يستوجب متأهُّبًا للإقدام على الفعل الممكّن منه أملا، من خلال تنفيذ ما رسم من خطّة أو استراتيجيَّة قد أعدت من أجل بلوغه.

ولسائل أن يسأل:

ألا تكون العلاقة بين الآملِ وأملهِ علاقة غاية؟

أقول: لا.

الأمل مع أنَّه لا يزيد عن كونه شعورًا مرغوبًا، فإنّه في حاجة لما يشبعه، أي: هناك علاقة بين الآمل وأمله، وهذا الأمر يجعل من الأمل حلقة وصل من دونه يكون اليأس هو ما تمتلئ به المسافة بين الآمل وما يمكن أن يكون له من أمل؛ ولذا فإن حدث ذلك أصبح الفرد أو الجماعة في مراحل الأمنيات وليس في مرحلة الآمال.

فالأمل حيويّة تولّد طاقة صامتة، أصحابه لا يستسلمون لليأس، بل يتحدونه ويتمرّدون عليه؛ من أجل مأمول مرغوب يحفّز على مزيدٍ من المثابرة حتى بلوغ الخوارق.

ولهذا فالأمل مولود التساؤلات والفرضيات العلميَّة التي تخرج الحائر من حيرته، وهي الموجّة للباحث صوب أهدافه، وللآمل صوب مأمولاته، وهي الممكّنة من معرفة الكيفيَّة التي عليها الأشياء في دائرة الممكن، وهي ذاتها كاشفة للعلاقة بين المشاهد والمجرّد.

إذن: وجب الارتباط بين الآمِل والمأمول بأمل لا يأس فيه. ومن أراد مزيدا من الآمال؛ فعليه بمنابعها؛ فهي لا تستمدّ إلّا منها، إنَّها الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي يرتضيها النَّاس، إلى جانب المبدع والمنتج الذي يحفّز على مزيد من توليد الأمل وصنعه.

فمنابعُ الأمل هي تلك القيم والمبادئ ذات المعاني والمفاهيم التي يأمل النّاس سيادتها بينهم دلالةً ومعنيً، وهي التي تتجسّد في الأفعال والأعمال والسّلوكيات وتحدث النُّقلة إلى الأفضل والأفيد محبّة ونفعا، كما أنَّها ترتقي بمن سادت بينهم إلى معرفة ما يَكمُن خلف المجرّد وكيفية كمونه.

إنَّها نتاج الموروث الاجتماعي والإنساني المستمدّ من الأعراف والأديان ذات الفضائل الخيّرة التي تحفّز على الارتقاء، وإحداث النُّقلة إلى ما يحقق الإشباع المرضي، كما أنّها ترشد إلى ما يُمكّن من تجسيد القدوة الحسنة، التي تُقدّر الآخرين حتى تحظى بتقديرهم؛ فمنابع الأمل أساسها القيم الحميدة والفضائل الخيرة التي تمكّن من بلوغ الغايات، وهي التي تستوعب المتغيرات دون أن تحدث انتكاسات معرفية أو سلوكية.

فالقيم عندما تنتج المبادئ الأخلاقيَّة قولًا وفعلًا وعملًا وسلوكًا تقود إلى تحقيق المأمول إرادة ورغبة، مع قبول الآخر واحترام خصوصيته التي بها يختلف عن الغير.

ولأنَّها القيم المرضية عن إرادة؛ فالمساس بها ليس بالأمر الهيّن، وهو أيضا لم يكن مستحيلًا؛ ولهذا في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع كل شيء ممكن. ولأنّ كلّ شيء ممكن؛ فمنابع الأمل قابلة للتقويض، متى ما تولى الأمر فاسدٌ، أو دكتاتورٌ أو محتلٌ لا يُقدّر المقدَّر من قِبل النّاس الذين يتعلّق الأمر بهم، فالقيم مع أنَّها نتاج الإرادة والرّغبة والمنافع المشتركة، ولكنّ التمرّد عليها

بإجراءات تعسّفية ممكن؛ فمن يتمكّن من سلب إرادة النّاس قهرا يتمكّن من تقويض القيم عبثا.

وعندما تستولي الأنا العابثة على أمر السّلطة الحاكمة، تصبح الأقوال غير الأفعال، حالها حال أحوَل العينين، الذي يلتفت إلى اتجاهٍ ما ليرى شيئا آخر في الاتجاه الآخر، فنلاحظ في بعض الأحيان أنّ أقوال الحاكم الفاسد تبدو وكأنّها مؤيّدة لفضائل وقيمٍ خيّرة، وفي المقابل أفعاله وأعماله تقوّضها من كلّ جانب؛ فالمفسد يدّعي الإصلاح؛ حتى يظهر نفسه وكأنّه المنقذ.

ولأنَّ القيم تتعرّض للتقويض من قِبل المستبدّين؛ فهي متى ما قوّضت تبدّلت وتبدّل أصحابها؛ وعندما تستبدل القيم عن غير رغبة، ولا إرادة يصبح النفاق سائدا على حساب الصّدق حتَّى تكاد لا تعرف الحقيقة مع قربها منك، وعندما يسود النفاق بين النَّاس بأسباب انعدام الثّقة، يصبح الكذب إلى جانبه سائدًا جنبًا إلى جنبٍ مع التزوير، والخيانة، والغشّ، وإباحة ممتلكات الدّولة.

ولأنَّ الفساد خروجٌ عمّا ترشد إليه منابع الأمل التي ارتضاها النّاس عبر التَّاريخ رغبة وإرادة؛ فستظل المواجهة مع الفساد والفاسدين بين سرٍّ وعلانية ولكلٍّ ثمنه.

ولأنَّ منابع الأمل نتاجٌ جمعيٌّ؛ فالمواجهة معها إن حدثت ستكون مواجهة بين خصوص وعموم، ممّا يجعل ساعة الحسم بينهما ساعة مفاجئة فيها الفساد لن يكون أملا.

ولذا فعندما يُقصى ويُمنع المواطن من ممارسة حقوقه الوطنية يُدفع تطرّفا ليكون على رأس هرم العنف حتى وإن كان من قَبل على مستوى من مستوياته الدّنيا، وهكذا من يستهدف الشّعب بالتكميم والتغييب والإقصاء، سيجد نفسه طرفا معاديا للشّعب ومطاردا من قِبله.

ومنابع الأمل تربط الحاضر بالماضي بهدف استمداد العبر والمواعظ، وتربطه بالمستقبل بغرض إحداث النُّقلة وغاية بلوغ الحلّ الذي لا تأزّم من بعده.

فمنابع الأمل قيمٌ لم تكن مقادير كميّة، بل كيفيَّة على الدّلالة والمعنى تجعل القدر لمن لم يكن له قدرٌ، فترفعه مكانة وقدوة حتى تجعل من رأسه رأس هيبة. وهذا لا يعني أنّها تعاليم تُلقّن؛ بل هي القيم القابلة لأن تتجسّد في الفعل الإنساني عملًا وسلوكًا، إنَّها منابع إحداث التغيير في الزّمن الآن؛ ليكون المستقبل زمنًا حاضرًا.

فتلك القيم الحميدة التي جعلت من معانيها صفات لمتشربيها جعلتهم على المكانة والرّفعة؛ فمن يتشرّب قيمة العدل حتى يتّصف بها عادلا، لا يختلف عمّن تجسّد الصّدق في قوله وفعله حتى أصبح الصّدق صفة لا تفارقه، أي: من يتّصف بالعدل يوصف به عادلا، ومن يتّصف بالصّدق

يوصف به صادقا؛ ولهذا فالنّاس متى ما تخالفوا أصبحوا في حاجة لِحَكمٍ عادلٍ وأناس صادقين لا يكتمون شهاداتهم، وهذا الأمر قد لا يتحقّق ما لم تتطابق قيمة العدل مع شخصيَّة الحَكَم أو القاضي أو من كان شاهدًا.

إذن: في الوقت الذي فيه منابع الأمل تزيل المخاوف، هناك ما يُخيف ومن يخيف، فالحاكم غير العادل مُخيفٌ؛ لأنّه لم يأخذ بقيمة العدل، وهذا ما يتخالف مع ما يأمله النّاس؛ فالنّاس يأملون تطبيق العدالة، ولكن عندما يكون الحاكم على غير علاقة مع قيمة العدل فلا عدالة، وهنا تكمن العلّة التي تفصل النّاس عمّا يأملون.

أمَّا الأمل فهو الحيويّة المحفّزة للاندفاع تجاه كلّ ما من شأنه أن يُمكّن من بلوغ الغايات، وهو الحيويّة التي تصهر الرّغبة في الطّموح مع قبول تحدّي الصّعاب.

ومع أنَّ الأمل قيمة، لكنّه ليس بمادي، فالمادي وإن كان من ورائه أمل فهو لا يُبلغ إلّا بمزيدٍ من الجهد، أمّا الأمل؛ فهو ما يخالج نفس الإنسان تجاه الشيء الذي لا يبلغ إلا بجهدٍ يبذل، ومن هنا فالأمل محفّز نفسي بحيويّة الرّغبة تجاه الغايات التي من ورائها مأمولات؛ ولهذا فمن يفقد المكانة لن يكون له أمل سوى العودة إليها، وهكذا سيظل الصّعود للقمّة مطلبا وأملا لمن فقده مكانة.

فالمكانة التي لا تتحقّق إلّا بالعمل لن تُبلغ ما لم يكن الأمل من ورائها يُصنع، ولأنّ الأمل في اتجاه بلوغ الغايات لا يتحقّق إلّا عملًا، فسيظل

الأمل مفهوما لا معنى له ما لم ينعكس في جهود تبذل بقوّة الرّغبة والإرادة تجاه غايات تُمكّن من إشباع الحاجات المتطوّرة.

ولهذا فالأمل العظيم يستوجب بذل الجهد مع مقدرة على توليد الفكرة من الفكرة؛ حتى لا يتمّ التوقّف عند حدّ معرفة المشاهد، والقصور عن معرفة المجرّد، قال تعالى: {فانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}[15]، أنزلت هذه الآية بدلالة التمعّن فيما تنظرون إليه من عجائب، والنّظر إلى العجائب يستوجب التفكير في الكيفيَّة التي بها خُلقت العجائب: {أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[16]، أي: يا بني آدم، لا تستوقفوا عقولكم عند المشاهد، بل مدّوا نظركم إلى الكيفيَّة التي عليها وبها خلقت الأشياء؛ فالنّظر إلى الإبل والسّماء والجبال والأرض ضرورة، لكن الأعظم من ذلك النّظر إلى الكيفيَّة التي بها خُلقت الإبل، الكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء، الكيفيَّة التي بها نصبت الجبال، وسُطحت الأرض.

هذه الآيات أنزلت بلغة التعجّب (أفلا ينظرون)، فلو نظر بنو آدم لعرفوا، ولو عرفوا لتدبّروا، ولأنّهم لم ينظروا فلن يتذكّروا ما يعظهم، ولن يتدبّروا ما يفيد أمرهم، ولن يفكّروا فيما يجب، وهنا يكمن القصور عمّا يحقّق الأمل.

---

[15] العنكبوت 20.

[16] الغاشية 17-20.

ولذلك وجب التذكّر؛ حتى لا تتكرّر الأخطاء، ووجب التدبّر دون غفلة عن العبر وما يوعظ، ووجب التفكّر فيما يُمكّن من معرفة الكيفيَّة التي تُمكّن من معرفة المستحيل مستحيلًا، ومعرفة المعجز معجزًا، ومعرفة الممكن ممكنا.

ولا ينبغي أن يكون التفكّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة تأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول.

ومن ثمّ؛ يعد التوقّف أو الانكفاء سِمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير، ممّا يخلق ارتباكًا وفوضى معرفية لا تكون نتائجها محمودة؛ فالتفكّر ارتقاء لا يكون إلّا واقعا ضمن دوائر متعددة تكون حاضنة له؛ فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه.

والتفكّر ارتقاء هو الذي يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل تكمن فيها معطيات النّهوض الذي يمنح النّاس حياة فيها الآمال تتحقّق.

الآملُ يصنعُ مأمولٌ:

الآمل هو ذلك الشَّخص الذي لا ييأس ولا يقنط فيعمل من أجل صُنع مستقبلًا مأمول، هو الذي يعرفُ أنَّ الأمل يدفعه تجاه مأمولٍ عظيم؛ ولهذا فالآمل دائمًا يضع نصب عينيه مأمولًا يسعى إلى بلوغه بحثًا وعملًا متصلًا، حتى يتمَّ نيله وتُشبع الحاجة التي دفعت الآمل إلى تحدَّي الصِّعاب

التي حاولت أن تحول بينه وبين مأموله، والتي بقهرها يتمكن الآمل من بلوغ ذلك المأمول المرغوب.

وعليه: لا أمل بلا آمل، ولا آمل بلا مأمول، إنَّها حلقات متداخلة: أحدها حيويَّة كما هو الأمل، وأحدها جهد كما هو الآمل، وأحدها باعث كما هو المأمول.

ولذا فالآمل هو من تولّد في عقله ونفسه أمل دون أن يتسلل إليه يأس ولا قنوط، بل العزيمة والإصرار وقبول التحدّي تحفّزه إقداما على العمل الممكّن من بلوغ المأمول ونيله.

فالآمل ينظر إلى المستقبل مخبأ الكنوز؛ فيسعى إليه جادًّا وهو متيقّنٌ أنَّ المستقبل تأتي إليه لا يأتي إليك؛ فيعمل كل ما من شأنه ميسّرًا لبلوغه حتى يستطيع إحداث النُّقلة المأمولة وبلوغ الحلّ. وفي المقابل الحالمون والمتمنون باقون على منصات الحلم والتمني ينتظرون المستقبل الذي لن يأتي.

والآمل تحيّره القضايا وتلفت انتباهه لنفسه وللآخرين خوفًا؛ فتأخذ من تفكيره حيزا، تشغله بداية، ونهاية تجعله متهيئا لتقديم الحلّ المخرج من التأزّمات.

ولذلك فالآمل لا يستسلم للواقع مع أنَّه لا يغفل عن أهميّته، بل يعمل على استفزازه لعلّه ينهض، فالواقع عندما يصبح قاصرا عن إشباع

الحاجات المتطوّرة فلا ينبغي الرّكون إليه، بل ينبغي نفض الغبار عنه، وكشفه كما هو، والعمل على تغييره لما يجب أن يكون عليه قمّة.

ولهذا فأقدام الآملين لا تقبل المشي على الغبار ورائحة المياه من جوف الأرض تنبعث، الحالمون والواهمون وحدهم فوق الغبار ينتظرون، أمّا الآملون فقد أسرعوا مشيا وتنقيبا؛ فتفجّرت منها العيون تنبع ذهبًا وثمرا وطيبا.

إنّه المستقبل المأمول الذي إن لم تأت إليه لا يمكن أن يأتي إليك، فمن المستغرب أن تكون المياه تحت الأقدام، والحالمون والواهمون والمتمنون يمشون على الغبار حفاة!).

والآمل لا يرضخ لواقع فيه من الألم ما فيه، إنَّه شخصيَّة حيويّة، يسعى لما يشبع الحاجة قبل الشعور بها حاجة، ومخازن تفكيره تجعل من الثروة مخازن، إنَّها المخازن المأمولة التي لا تأتي لمن قَبِل بوضع قدميه في الغبار، وباطن الأرض تحتهما كنز ورحمة.

ولأنّها الحياة الدنيا، فلا تنس نصيبك منها، ولا ينبغي أن تجعلها نصيبك؛ فهناك ما هو أعظم، وهو الآخر لا يأتي إليك إن لم تأت إليه؛ فاعمل صالحًا واتق الله في قدميك وأخرجهما، من الغبار بما أنّك خُلقت مخيّرا في كل ما يتعلّق بأمرك، ولا تفكّر في التسيير فهو بيد الله شئت أم أبيت.

وكن آملًا وخلّص نفسك من الاستغراب الذي إن لم تفارقه لن يفارقك، وإن لم تفارقه ليس لك إلّا قبول المزيد من دفع الثمن مع وافر الحيرة والألم عند كلّ تغيّر مفاجئ؛ ولهذا فالتغيير إلى الأحسن نزهة الآملين، وفي المقابل التغيّر إلى الأسواء لا يكون منزلة إلّا للمفسدين فيها.

ولأنَّ الآمل يترقّب التغيير للأحسن؛ فلا استغراب في قاموس أمله، بل التغيير للأفضل يحفّزه على طي المسافات مع المأمول المراد نيله؛ فيغتنم التغيير حيويّة مضافة.

والآمل شخصيَّة متهيئة لصنع المستقبل وإحداث النُّقلة من الأرض المغبّرة إلى الأرض المرويّة، مع عزمه على إحداث نقلة أعظم تسهم في رتق الأرض بالسّماء جنّة.

الآمل شخصيَّة تمتلك الإرادة وتحسن التصرّف؛ فترسم خططها وسياساتها وفقًا لأهداف قابلة للإنجاز؛ ولهذا وضع الآمل نفسه موضع الاستعداد الذي يستوجب إعداد عدّة؛ فيعدها وروح التحدّي لا تفارقه.

ولأنّ الآمل لا يأس في نفسه؛ فهو لا يقبل الوقوف عند حدّ التهيؤ والاستعداد وإعداد العدّة، بل يتجاوزها إلى ما يمكّن من العمل، فيتأهب له لحظة بلحظة، حتى يدخل ميادينه إنتاجًا وإبداعًا.

ولهذا فشخصيَّة الآمل جسورة (حُجّةً ومنطقًا)، فهي متى ما واجهها الرّوتين أسقطته أرضًا، شخصيَّة متطلّعة لما يجب، ومُقدِمة على أفعاله

وأعماله، وتستقرأ التاريخ كي لا تغفل، وتدبّر حاضرها بحثًا علميًّا، وتطلّعًا إلى المأمول خطًا ثابتة، والثقة في التغيير إلى الأفيد والأجود والأنفع بلا حدود إلى النهاية.

قيم المجتمع الحضارية والثقافية تستوقفها ذاتًا وطنيَّة فلا تقبل المساومة، الفضائل الخيرة بالنسبة إليها تشكّل روح المأمول، وتلهم النفس طمأنينة.

وشخصيَّة الآمل متطوّرة عملًا ومعرفة وثقة، ولا تنظر للآخر الجاد إلّا سندًا، فتستوعبه ضلعًا من أضلاع الأشكال الهندسيَّة التي لا تُرسم وتتجسّد الهيئات إلّا بها بناءً وإعمارًا وارتقاءً[17].

إنَّها شخصيَّة لها هيئتها الخاصّة ثقافةً وعادةً وعرفًا، تحترم من يحترمها ويقدّر خصوصيَّتها، ممّا يدعوها إلى مبادلته اعترافًا وتقديرًا واحترامًا.

ولهذا فالآمل غايته مبادلة الاعتراف بالاعتراف، والتقدير بالتقدير، والاحترام بالاحترام، والاستيعاب بالاستيعاب مع وافر التفهّم لكلّ خصوصيّة.

وهذه الغايات من ورائها غاية عظمى ألا وهي بلوغ المأمول ونيله درجة من بعد درجة على سلّم الارتقاء، فالارتقاء بالنسبة إلى الآملين غاية كبرى؛ كونه يمكّن من بلوغ العيش الرّغد، والحياة الآمنة المطمئنة، والعدالة التي لا ظلم من بعدها، والتوافق الذي لا محبّة إلّا منه.

[17] نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019، ص 122.

والارتقاء بالنسبة إلى الآملين لم يكن نقطة للوقوف أو التوقّف، بل نقطة للانطلاق؛ فكلّما بلغ الآمل نقطة ارتقاء تحفّز إلى ارتقاء أهم، واندفع تجاهه.

ومن ثمّ فالآمل لا ينكسر، وإن انكسر بأيّ علّة جُبر بمأمولٍ، فالمأمول لا يفارق الآمل؛ ولهذا إذا وقع مفاجأة يهمّ وينهض ويستأنف المسير، أمّا غيره إذا وقع فلا نهوض، وعليه ليس عيبا أن يسقطك الخصم أرضا، ولكن العيب ألّا تهمّ وتنهض.

الآمل يحسب الوقت ويجيد إدارته عملًا منتجًا، فليس له وقت يضيع، وهو المتجاوز عن أخطائه وأخطاء؛ احتراما لنفسه وللآخرين، ثمّ احتراما للوقت الثمين الذي لا ينبغي أن يضيع؛ ولهذا الصّفح والصّلح والعفو والتسامح رأس ماله.

ولأنّ هذه القيم من ملامح شخصيَّة الآمل؛ فالآمل لا يقف إلّا عند إشارة (قف) بغاية فسح المجال أمام الآخرين حركة آمنة؛ فتفكير الآمل متجاوز للأسقف التي تحدّ من الامتداد الحرّ فسحة لا تلامس امتداد الغير داخل حدودهم.

والآمل إنْ أراد نفسه قدوة حسنة؛ فعليه بالقول الحسن، والفعل الحسن، والسّلوك الحسن، مع عدم التفريط في الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة إلى جانب قيادة العمل الجاد الذي يستوعب الآخرين رحمة، وفي

هذا الشأن أخّص الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بالرّحمة التي أورثها لشعبه أملًا محبَّةً.

ومع أنَّ الشخصيَّة الآملة لا تفرّط في قيمها وفضائلها الخيّرة، فهي تتطلّع إلى معرفة قيم الآخرين؛ لتأخذ منها ما يفيد علما ومعرفة وثقافة وتقدّما وارتقاء.

فالشخصيَّة الآملة مع أنها تؤمن أنّه لا إمكانيَّة لبلوغ المستحيل والمعجز، لكنّها تعمل وكأنّها واثقة من بلوغهما؛ ولهذا بإمكانها توليد الأمل من الأمل حتى بلوغ الخوارق. فالآمل لا يتقدّم خطوة إلّا وحسب لها ما حسب في دائرة الممكن، وعرف أين يضع قدمه، وعندما يضع قدمه بداية المسير لا يمكن أن يرفع قدمه الأخرى إلّا إذا تبيّن له المكان الذي يجب أن توضع عليه؛ ولهذا فخطاه ثابتة، والرّياح لا تهزّه. قدّر كلّ شيء، وحسب لكلّ شيء جدوته، ومن ثمّ فلا مأمول له إلّا وإمكانيَّة نيله متيسّرة.

وعليه فالآمل:

. يمارس حقوقه؛ كي لا يفتقدها.

. يؤدّي واجباته؛ كي لا تضيع مكانته.

. يتحمّل مسؤوليته؛ كي لا يغيّب ولا يهمّش.

ولهذا:

. ثق في نفسك إن كنت عازما على التقدّم.

. ثق في نفسك إن أردت تحدٍّ.

. ثق فيما تأمل إن أردت نيل المأمول.

. ثق في نفسك يقدّرك الغير.

. ثق في نفسك يخشاك الغير.

. ثق في نفسك تحدث النُّقلة.

. ثق في نفسك تبلغ الخوارق.

ولأنّ الثقة عمار النفس فعليك أن تعرف أن الثقة:

. مكمن قوّة النهوض.

. مكمن قوّة العطاء.

. مكمن قوّة التَّحدّي.

. مكمن قوّة نيل الاعتبار.

. مكمن قوّة الحصول على الاعتراف والاحترام والتفهّم والتقدير.

إذن: الآمل ينبغي ألّا تأخذه الغفلة؛ فإن أخذته الغفلة:

. ضاع مأموله.

. سبقه الزّمن.

. تخلّف.

. لا يستطيع دخول ميادين المنافسة الحرّة.

. فقد مكانته.

والآمل في دائرة الممكن شخصيَّة منافسة تجاه المأمول الذي رسم بشأنه خطة، ومن أهم ما يمكن أن يزيده منافسة أمام الغير مضاعفة الجهد والوقت مع مراعاة السّلامة من أجل نفسه وأمله؛ فالطالب الآمل فوزا بمرتبة الشرف الأولى سيجد نفسه مع آخرين لهم ذات المأمول؛ ولهذا ليس له إلّا مضاعفة الوقت، وحُسن إدارته، مع مراعاة الغذاء المناسب، والنوم المريح، والانتباه المركّز.

وهنا يتضح الفارق بين الأمل والطموح من حيث إنّ مأمول الآمل، تصدّر المتصدّرين، أمّا طموح الطّامح فهو أن يكون ناجحا؛ ولذا فهما يلتقيان في المطلب (النجاح) ولا يلتقيان في المنافسة من أجل الصدارة، وهذا يعني: أنّ كلّا منهما متحدّ لما هو فيه من أجل مستقبل منشود (مرغوب)، غير أنّ الطموح متحدٍ للفشل، أمّا الآمل فمنافس للناجحين؛ فهو الواثق من قراره وإمكاناته أنّه سيبلغ مأموله ويناله.

ولهذا الآمل لا يقدّم التنازلات إلّا من أجل المأمول نيلا، دون أن تكون تنازلاته على حساب الغير، وكذلك الطموح لا يقدّم تنازلاته إلّا من أجل المطموح فيه، ولكن تنازلاته قد تكون على حساب الغير.

الأمل يُصنع، ويرسّخ المكانة:

مع أنَّ الأمل قيمة، فإنَّ قيمته لا تعود إلَّا على آملٍ، يأمل بلوغ مأمول فيه الرّفعة والمكانة؛ ولهذا فالأمل طموحٌ آملٍ لمستقبل أفضل، وسعيًا لترسيخ مكانة، أو البحث بغاية تبوئُها؛ ولذلك كلَّما كان الأمل متجدِّدًا تحقّقت رفعة الآمل، وترسَّخت مكانته.

ولهذا فالأمل بحث عن مكانة، والمكانة يُمكن أن يكون الإنسان عليها خَلقًا، ويمكن أن يكون عليها قيمة لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي والخُلقي، وفي المقابل هناك من يره تطوّرًا يطرأ على الكائنات الحيّة؛ فيغيّر حالتها من دُنيا إلى عُليا، من خلال ما يطرأ عليها من تغيّر في الجينات والسّمات؛ ولكنَّ الجينات الخَلقيَّة لم تكن نتاج تكيف بيئي حتى تتبدّل وتتغيّر مع تغيّر البيئات، بل هي خاصّيّة خَلقيّة تحافظ على الأجناس، حتى وإن بلغ الإنسان من العلم ما بلغه؛ فلا إمكانيَّة له أن يغيّر الأجناس، وستظل الكائنات على ما هي عليه مختلفة، وإن لُعب بها جينيًّا، ولكن تحسين وتجويد أنواعها أصبح في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع ارتقاء حتى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع، فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة؛ ولأنّه كذلك فالأمل لا يفارقه؛ ولهذا فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد العلمي والمعرفي،

والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ بعضنا أنَّها متطوّرة، نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم؛ ولذلك فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعية، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاؤه؛ فالإنسان خُلق متميّزا بخصائص الارتقاء وصفاته، التي لم تكن من خصائص وصفات بقية الكائنات العاجزة عن صنع أمل يغيّر أحوالها.

ولذلك فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المأمول إنتاجًا، وفي ذات الوقت يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطًا منذ خلقه الأوّل، ومع ذلك منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ آدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع أنَّه الأمل في الزّمن الحاضر، فإنّه يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعًا للمشاهدة، مثل: الإعمار، وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره، ومن هنا، يُصبح الارتقاء في دائرة الممكن يستوجب بحثًا علميًّا مضنيًّا، وجهدًا ينجز وفقًا للأهداف المحدّدة والأغراض التي من ورائها، والغايات المأمول بلوغها قمّة. وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعًا للملاحظة مثل: السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم.

فالإنسان في دائرة الممكن، ارتقاؤه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدًا من الاحترام والتقدير والاعتبار؛ وذلك بما يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّدٌ على حساب الغير.

وهنا فالممكن ارتقاء هو المتاح أملًا وتذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلًا ولا معجزًا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجود لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعد إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنَّه الممكِن ارتقاء؛ فهو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فالمتوقّع منه هو الذي بحدوثه لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب. أمّا غير المتوقَّع فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقّع في دائرة

الممكن؛ ولهذا إذا ما حدث غير المتوقّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقّع، يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع (هو كما هو) إثباتًا. ومن هنا، ينبغي أن يتمَّ التعرُّف على غير المتوقّع، وعلى علله ومسبّباته لاحقا؛ ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقّع.

فالمتوقّع وغير المتوقّع متغيران رئيسان في دائرة الممكن، التي فيها تتساوى فرص ظهور كلّ منهما بنسبة ثابتة قدرها (50%) والمتوقّع يمكن أن يكون سالبا، ويمكن أن يكون موجبًا؛ فالموجب منه لا يكون إلّا وفقا لما هو مأمول، والذين لا يأخذون حذرهم يرسمون خططهم وسياساتهم وفقا لما هو موجب متوقّع، وكأنَّ الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأنَّ العلائق بين النَّاس لا تُبنى إلّا على الصّدق فقط؛ ولذلك فهم دائمًا يفاجأون؛ كونهم لم يحدّدوا لغير المتوقّع موضعا.

وعليه:

ينبغي أن تُرسم الخطط والسياسات والاستراتيجيَّات وفقًا لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقّع موجبا وما هو متوقّع سالبًا، وما هو غير متوقّع موجبًا، وما وهو غير متوقّع سالبًا.

وبما أنَّ الممكن ليس مستحيلًا؛ فعلى الإنسان أنْ:

. يصنع له أملا عظيمًا.

. يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر ويعمل.

. يخطّط لما هو غير متوقّع مثلما يخطط للمتوقّع.

. يعمل ارتقاء بلا تردّد ولا يأس؛ حتى يُرتَقَ الممكن بالمستحيل قمّة.

. يقبل تحدّي الصّعاب؛ فالصّعاب تُقهر، ولا مستحيل في دائرة الممكن، ولا استغراب، بل الاستغراب ألا يتمّ تحدّى الصّعاب التي تحول بين الإنسان ومأمولاته ارتقاء.

وبالتّالي فمن يرسم الخطط والاستراتيجيات ويعد البرامج وفقًا لِما هو متوقّع، عليه أن يعرف أنَّ ما يفكّر فيه معرّض لمواجهة غير المتوقّع، ممّا يلفت انتباهه إلى التفكير في غير المتوقّع بخطط بديلة تواجه ما يمكن مواجهته من مواقف، أو أضرار، أو مخاطر قد تحدث؛ ولذلك فالزّمن الحاضر هو زمن التخطيط والتدبّر والتذكّر والتفكّر وصنع الأمل، وهذا يعني: أنّ دائرة الممكن هي التي فيها ينصهر الزّمن حاضرا، أي: إنّ التذكّر الذي يرتبط بما هو ماضٍ، لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وكذلك التفكّر الذي يتعلّق أمره بما لم يتحقّق بعد لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وفي الوقت ذاته يتدبّر الإنسان أمره وكأنّه لا يعيش الزّمن إلّا حاضرا. أي: إنّ الذي يتذكّر في دائرة الممكن لا يجب أن ينظر لما يتمّ تذكّره من الماضي

وكأنّه لن يتكرّر، بل ينبغي أن يراه وكأنَّه الآن يواجهه تحدٍّ، ممّا يجعله في وقته الحاضر متحدّيا له بحلولٍ حاسمة، وهكذا، ينبغي أن يفكّر فيما يمكن أن يواجهه مغالبة، حتى لا يحدث وتحدث المفاجآت المؤلمة التي تؤدّي إلى الانتكاسة أو الانحدار، بدلًا من أن تؤدّي إلى بلوغ القمّة ونيل المأمول.

فالممكن احتمالًا يسبق ما يمكن أن يكون محتملًا أو غير محتملٍ، وهكذا حال الأمل؛ ولهذا فلا يتحقّق الممكن إلّا في دائرة الحاضر، حتى وإن أصبح ذلك المتحقّق في دائرة الزّمان مسجّلًا؛ فالممكن المتوقّع وغير المتوقّع في زمنه الحاضر يسبق حدوث الفعل كما يسبق أمل الآمل مأموله، ومن ثمّ يظل الممكن تحت الانتظار إلى أن يتحقّق أو لا يتحقّق، ومن هنا، يصبح للممكن مصادق تثبت حدوثه أو تبطل حدوثه.

فالممكن في زمنه الحاضر يُلاحق العبر والمواعظ، ويتزامن مع التدبّر، ويسبق المأمول حتى يتمّ بلوغه ارتقاء؛ ففي الزّمن الحاضر لا انتظار لشيء يعود إلّا استدعاء ذاكرة، ولا انتظار لشيء يأتي وهو لم يكن شيئا، ولا شيء يحدث إلّا في الزّمن الحاضر.

وبما أنَّ في دائرة الممكن لا وجود للمستحيل، إذن: فمن الممكن التفكير في المستحيل حتى معرفته مستحيلًا، وعندها يدرك الإنسان أنّه في حاجة لمزيد من الارتقاء، ومع أنَّ الإنسان يتوقّع ما هو ممكن، فإنَّه قد لا يستطيع تحقيقه بأسباب قصور قدرته ومحدودية إمكاناته، وعلى الرّغم من

ذلك؛ فعليه أن يعمل مع من يمكّنه من الارتقاء تحدٍّ؛ فالصّعاب لا تصمد أمام التحدّي.

ولهذا فالإنسان يتذكّر ويتدبّر ويفكّر في كلّ ما من شأنه أن يُظهر له ممكنا، ويمكّنه من إنجازه، أو تحقيقه بغرض الارتقاء إلى ما هو غاية.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكنٌ؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وأن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود؛ فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء؛ ولذلك فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقّع.

ومع أنَّ في دائرة الممكن يتساوى حجم المتوقّع مع غير المتوقّع، ولكن تظل دائرة الممكن واسعة، فمهما فكّرنا فلن نبلغ كلّ ما نفكّر فيه، فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكنا، ما كان البحث عنه؛ ولهذا فالبحث عن العمل ممكن، والحصول عليه ممكن، وعدم الحصول عليه ممكن أيضًا. ولكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل كما قُدِّمت إلى محمَّد أبو عزيزي بمدينة سيدي أبو زيد بتونس الذي كان الأمر بالنّسبة إليه غير متوقّع، وذلك في مقابل ما اتخذه من فعل (الاحتراق) الذي لم يكن هو الآخر متوقّعا من قبل الذين قدّموا له الإهانات، ممّا ترتّب على الفعلين غير المتوقّعين فعل

ثالث غير متوقّع، ألّا وهو الثورة، التي لم تطفئ نارها إلّا بسقوط نظام الرئيس التونسي زين العابدين بن علي من قمّة السُلّم السّلطاني.

ولذا فالعلاقة بين المتوقّع وغير المتوقّع هي علاقة ممكن (قاعدة واستثناء)؛ فحيثما كانت القاعدة كان الاستثناء متلازما معها، ومن هنا، يجب التفكير وفقا للقاعدة دون الغفلة عن الاستثناء، ومن يغفل عنها فليس له إلّا المزيد من المفاجآت.

وبما أنَّ الارتقاء ممكنٌ؛ فلا مستحيل ولا معجز في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصّعاب؛ كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لابدّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهُّبًا، وعملًا راقيا تنجزه الإرادة.

ومع أنَّه لا صعب أمام قبول التحدّي والمزيد من بذل الجهد ارتقاء، فإنَّه لا ارتقاء لخرق المستحيل والمعجز؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما على الرّغم من الصّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدَّي الصِّعاب) أمّا لاستثناء: (الاستسلام إليها).

ولأنّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوّة تدبّر؛ حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه

للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه؛ ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر؛ فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

فالتهيّؤ في دائرة الممكن هو ارتقاء لأداء العمل الموجب، وكذلك هو ارتقاء لمواجهة ما يمكن أن يكون من فعل سالب، فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل تُرسم لمقاومة المعيقين له، ومتى ما بلغ الإنسان التهيؤ إرادة، بلغ القناعة المحفّزة والدافعة إلى تنفيذ العمل ومواجهة ما يعيقه من صعوبات؛ ولذلك فالذين يتهيّؤون إلى ارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكلّ قوّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته؛ فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيدهم على الزّناد مرتعشة ، وهنا يوجد مفتاحًا.

إذن فمن تهيّأ واستعد لعملٍ وأقدم عليه ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيه، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا فكلّما توافرت الأفكار والحُجج تجاه القضية الخارجية مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا فالتهيّؤ للقول يؤدّي إلى الاستعداد لأنّ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، ولكن إن لم يعقب التهيؤ استعداد؛ فلا إمكانيَّة؛ حيث لا إرادة؛ ولذلك فإنّ غياب الإرادة يغيّب كلًّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما.

ولا إمكانيَّة للارتقاء بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وإن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل، وبلوغ الارتقاء قمّة.

فالتأهّب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف، مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّد ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء في مشيئة الله.

لأنَّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن فمن يتأهّب لأداء الفعل ارتقاء لابدّ وأن يكون متأهِّبًا لما يترتّب عليه من ردّة فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجآت في كلّ مرّة فأخذ الحيطة والحذر ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على

حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، ومن هنا، تصبح الغاية هي: تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاحًا مساندًا.

ولذلك فالغاية من بعد الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع أنَّها غايات، ولكنّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدون إليها، ويتأهبون لحسم الأمر، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات، ونيل المأمولات من بعدها رفعة.

ولأنَّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاء يمكّن من بلوغ الغايات؛ فالمزيد من التّأهب إليه يُسرّع بحركة إحداث النُّقلة مع تسارع امتداد الكون إلى النّهاية؛ ولهذا لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاء أن تصمد أمام التسارع ارتقاء تجاه إحداث النُّقلة المأمولة، بل كلّ الأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى الأسطح، ولم يضعوا في حسبانهم أنّه لا نزول إلّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقِطَ بهم أرضًا.

ومن هنا كان الفأر أكثر فطنة وذكاء من تلك القمم التي صعدت وبقيت هناك؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

فقال:

ألا يكون من الأفضل لي أن ألعب بذيلي بدلا من أنْ ألعب برأسي؛ فأنا عندما ألعب بذيلي أفكر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

وعليه:

فمن أجل ألا يتكرر اللعب بالرّؤوس، ينبغي أن يحيوا النّاس، ويموت الموت الذي كتب عليهم بعلل الفقر، والمرض، والألم، ثمّ يُقضى عدالة على الهيمنة، والحرمان، والإقصاء، ويفسح المجال للحقوق أن تمارس، والواجبات أن تؤدّى، والمسؤوليّات أن تُحمل، دون أن تكون الحاجات في حاجة للإشباع. ودون أن يكون من بعد العلم جهل بذلك الصفر الذي من بعده أصبح الكون وجودا متمدّدًا ومتسارعًا.

صُنع الأملُ في دائرة الممكن:

مع أنَّ الأمل قيمةٌ في ذاته، فإنَّه يمكّن الآمل من صُنع أملٌ ومن بعد أمل، ولهذا فإنَّ الأملُ والمأمول لا يمكن أن يكونا إلَّا ممكنٌ سواء أكان الممكن متوقّعًا أم غير متوقَّع، أي: إنَّهما ليسا بمستحيلين؛ ذلك لأنَّ المستحيل لا يتحقّق إلَّا إعجازًا من عند الله، أمَّا الممكن فميسّر التحقُّق لمن يعمل، وللتمييز أقول:

الممكن: هو الذي لا شك في حدوثه، أو ظهوره كلّما توافرت معطياته أو شروطه؛ ولهذا لا يعدُّ الممكن مستحيلًا، وبما أنَّه غير مستحيل إذن: بالضرورة سيقع وفقًا لما نتوقّع أو وفقًا لما لا نتوقَّع.

وتتكون دائرة الممكن من (المتوقّع وغير المتوقّع) التي تتساوى فيها فرص ظهور كل منهما وفقًا للفرض الصفري بنسبة ثابتة قدرها (50%)[18].

وعليه: فالممكن هو ما ليس بمستحيل ولا معجز، ومع أنَّه المتوفّر وجودًا فإنَّه يحتاج إلى مكتشفين ؛كونه يمتد من كامنٍ إلى مشاهدٍ، وهو الذي يمتد في الماضي منجزًا، ويستمر مع الحاضر يُنجز، وينتظر مستقبلًا لينجز، وهكذا يُكوِّن الممكن دائرة تحتوي المتوقَّع وغير المتوقَّع سالبًا وموجبًا، وسهلًا وصعبًا؛ ولهذا فالممكن لا شك في حدوثه، أو ظهوره كلما توافرت معطياته أو شروطه، وبما أنَّه غير مستحيل، إذن: فبالضرورة سيقع وفقًا لما نتوقَّع، أو وفقًا لما لا نتوقَّع، وبما أنَّه ممكنٌ فهو من دون شك سيكون قابلًا للإنجاز أو التحقق أو البلوغ.

وعليه: لا امتداد، ولا حركة إلاّ في حدود الممكن؛ ولذلك يكون الممكن هو مجال الامتداد، ومجال الحركة والسُّكون في دائرة المكان والزمان، ولأنَّه ممكنٌ فهو متوقَّع الحدوث، وبعد حدوثه قد يكون مساويًا لما هو متوقَّع، وقد يكون أكثر أو أقل، وعليه: فالممكن ضروري الحدوث، ولكن نسبة حدوثه احتماليَّة مما جعلنا نفترض لها ثلاث احتمالات:

الاحتمال الأوَّل: يكون الممكن مساويًا للمتوقَّع.

---

[18] عقيل حسين عقيل، الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم ومبادئ)، المصريَّة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 177، 2019.

الاحتمال الثَّاني: يكون الممكن أقل من المتوقَّع.

الاحتمال الثَّالث: يكون الممكن أكثر من المتوقَّع.

ولذا فما نشاهده أو نلاحظه ونحس به أو نتذوَّقه أو نشمه أو نسمعه هو الواقع في حدود الممكن؛ ولذلك يحدث الاختلاف في درجات تمييزنا لما يقع في مجال الممكن بالنسبة إلى مداركنا وقدراتنا وأحاسيسنا، فمنّا من يميّز بين الأشياء أكثر من بعضنا، وهذا يعني: أنَّ بعض لدبه قدرة تمييزه أقل، وبعض آخر يساوينا.

وعندما نتحدث عن الممكن فلا ينبغي لنا الإغفال عن غير الممكن؛ إذ لا وجود لغير الممكن بالنسبة إلى الله تعالى: {وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[19]، أمَّا بالنسبة إلى البشر فهناك الممكن، وهناك غير الممكن، والممكن في نضج القدرة، وغير الممكن في قصورها؛ ولهذا قد يتوقَّع المفكر ما هو ممكن، ولكنَّه قد لا يستطيع تحقيقه؛ نتيجة قصور إرادته وقدرته.

ولهذا يقع الممكن في الزمان الحاضر والزمان المستقبل، ولا يقع في الزمان الماضي؛ ذلك لأنَّ الممكن هو افتراض قابل للتحقق، وليس افتراضًا محققًا، فالمتحقق هو الكائن أو الكائنة، أمَّا الممكن فهو الذي لم يكن بعد،

[19] البقرة 117.

ولكنَّه سيتحقق في الآن، أو في المستقبل؛ ولهذا يكون الفرق واضحًا بين المتحقق ككائن، والممكن الذي سيتحقق.

وعليه: يمكننا الآن الحوار مع السؤال الذي طُرح منذ زمن بعيد في الفكر الفلسفي وهو: ما هو الأسبق في الوجود: الممكن أم الواقعي؟ وأجاب أرسطو على ذلك بأنَّ الواقعي أسبق في الوجود من الممكن معللًا ذلك بقوله: (إن الممكن يحتاج كي يوجد إلى واقعي يسبقه).

وعليه: من هذه الناحية نعم لولا وجود مصدر للأمر ما كان للأمر وجود أوَّل، ولكن من ناحية أخرى فالأمر السَّابق غير مطلق؛ مما يجعلنا نقول: لا يمكن أن تتواجد الأشياء ما لم تكن ممكنة؛ فالله سابق الوجود على الممكن، وكل ما تحقق من بعده وما سيتحقق هو الممكن بالنسبة إليه، والبشر كمحقق من هذا الممكن عندما يسعون إلى تحقيق ما هو ممكن من ناحية عقليَّة، يكون الممكن في هذه الحالة سابقًا على المتحقق ذهنيًّا أو إدراكيًّا، وهكذا يكون حال الممكن الإلهي الذي لم يُحقق بعد (لم يخلق) للمشاهدة والإدراك العقلي، بمعنى عندما يصدر الله أمرًا وهو الممكن لا بدَّ وأن يتحقق في الوقت المحدد له، وفي هذه الحالة يكون الممكن سابقًا على المحقق، ومن ثمَّ يصبح الممكن قرارًا معطياته مثبتة للتحقق، والتحقق فعل تنفيذ الممكن وهو الكائن أو الكائنة، والبشر لا يحققون إلَّا الممكن، أمَّا الله فيحقق الممكن والمستحيل والمعجز، فسبحان الله العظيم.

المتوقَّع: إنَّه الذي (بحدوثه، أو ظهوره، أو وجوده لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب).

ولهذا فمعطيات حدوثه المتوقَّع أو ظهوره متوافرة بين أيدي الباحثين، ما يجعل صحة إثباته (هو كما هو) وعليه: إذا ما وقع لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب. والمتوقّع يمكن أن يكون سالبًا، ويمكن أن يكون موجبًا وفقا للآتي:

الموجب المتوقّع: كلّ قول وفعل وسلوك وعمل يترك أثرًا مرضيًا في نفس الأنا والآخر، والذين لا يأخذون حذرهم يقعون في هذا المربّع؛ ولذلك خططهم ترسم على موجب متوقّع، وكأن الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأن العلائق بين النَّاس لا تبنى إلّا على الصّدق؛ ولذلك هم يفاجؤون.

أمّا السَّالب المتوقّع: فهو كلّ قول وفعل وسلوك وعمل يترك أثرًا موجعًا في نفس الأنا والآخر، من مظالم وعدوان، وخروج عن القيم الحميدة والفضائل الخيّرة. والحذرون هم الذين يقعون في هذا المربع، ومع أنَّهم يتوقّعون وجود سالب ويعملون على تفاديه فإنّهم يقعون في الفخ.

غير المتوقَّع: إنَّه الذي لا تتوافر معطيات أو شروط حدوثه أو ظهوره بين أيدي البحاث، ومع ذلك يقع، مما يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن؛ ولهذا إذا ما وقع تقع المفاجأة أو الاستغراب.

ولذا، يقع (غير المتوقّع) أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ما يجعله يقع (كما هو) إثباتًا.

ولهذا ينبغي أن يتم التعرف على غير المتوقّع، وعلى علله ومسبباته لاحقًا؛ ليتم التعرف على نقاط الغفلة أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المسبق.

وعليه: فالأمل حيويّة بشريَّة تنبعث طاقة في الفكر المتأمّل أحواله، وما يدور من حوله، وما يجب أن يقدم عليه تجاه ما يتعلّق به من أمر، وهو لا يكون إلّا في دائرة الممكن[20].

أمّا المستحيل: ما ليس بيد البشر، وغير ممكن الحدوث على أيديهم؛ فلا يُفعل من قِبلهم، ولا إمكانيَّة لبلوغه، ولكن لو لم يكن ما كنّا، ولأنّه كائن؛ فلا إمكانيَّة لتجاوزه، ولا إمكانيَّة للقفز عليه وكأنّه لا وجود. إنّه الحائل بين الممكن النّسبي (كلّ ما هو بيد المخلوق) والممكن المطلق الذي لا وجود للصّفر فيه وهو لا يكون إلّا بيد الخالق.

فالمستحيل لا يكون إلّا حيث لا تكون الإمكانيَّة، وهو ليس بالصّعب؛ فالصّعب هو تلك الأعمال التي تستوجب مزيدًا من الجهد دون

[20] المرجع السابق، ص 220.

أن تكون مستحيلة التحقّق؛ وهي التي تواجه من يأمل ولا تواجه الكسالى، وهي التي لا تصمد أمام المتحدّين لها صبرًا ومزيدًا من الثبات وبذل الجهد الممكّن من إنجاز الأهداف، أو تحقيق الأغراض، أو بلوغ الغايات ونيل المأمول أو الفوز به، فلا مستحيل في دائرة الممكن حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصّعاب؛ كي تتيسّر الأمور ارتقاءً؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاءً، لا بدّ أن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي لنا تحدّي الصّعاب تهيؤًا، واستعدادًا، وتأهّبًا، وعملًا راقيًا تنجزه الإرادة والأمل لا يفارق.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاءً، فإنّه لا ارتقاء لخرق المستحيل، فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما على الرّغم من الصّعاب.

ولأنّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوّة تدبّر والأمل لا يفارقه، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه أملًا؛ ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

ولذا فالصَّعب يمكن بلوغه في دائرة الممكن غير المتوقّع، أمّا المستحيل؛ فلا إمكانيَّة؛ حيث وجود الصّفر بداية ونهاية.

ولأنَّ المستحيل لا يُوجِدُ نفسه ولا يخلقها، إذن فالخالق من ورائه، وهو القوّة التي لا تكون إلّا بيد القوي، الذي لا يُفعل المستحيل إلّا بأمره.

ومع ذلك فالمستحيل أمر في ذاته، حيث يقف المخلوق عند حدّ لا يدرك من بعده شيء سوى الوجود، الذي لا يكون إلّا بفعل الفاعل الذي جعله وجودًا؛ فالفاعل لو لم تكن بيده القوّة المطلقة ما كان المستحيل فعلًا مستحيلًا.

ولهذا فلا مجال لأملٍ إلّا في دائرة الممكن، ولا إمكانيَّة لنيل مأمولٍ إلّا فيها، وهذه ما دون المستحيل والمعجز، حتى وإن كان المأمول المتحقّق نيله خارقة من الخوارق؛ فالخوارق لا تخرج عن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع. أي إنَّ الخوارقُ هي ولّادة ما لم يكن بالحسبان، وبها يتمّ تجاوز المألوف والمحتمل في دائرة الممكن غير المتوقّع من خلال تحدّي العقل البشري للكوابح والمعيقات، وهي نتاج المقدرة الذّهنية ذات الرّؤية الثاقبة للمشاهد والملاحظ بغاية التعرّف عليه وعلى القوانين التي هو عليها، وعلى الكيفيَّة التي بها خُلق حتى التمكّن من معرفة المستحيل مستحيلًا.

فالخوارق تُصنع وتُبدع كونها على غير سابقة معروفة، فمن بلغها اختراقًا (تجاوز المألوف) وأظهر ما كان مجهولًا، أو مختفيًا لحيّز المشاهدة والملاحظة فيضيف جديدًا غير متوقّع لميادين المعرفة الواسعة. فالخوارق لو لم تكن ممكنة ما كانت، ولأنّها في دائرة الممكن فهي ستتولّد خارقة ومن بعدها خوارق، وما الاستغراب الذي يصاحبها أو المفاجآت التي تلاحق وجودها إلّا بسبب كونها لم تكن متوقّعة.

والخوارق تُصنع؛ لأنّها تأتي عن غير قاعدة مألوفة، وعن غير معتاد ولا متوقّع، ممّا يجعل علامات الاستغراب والاستفهام والتعجّب توضع عليها، وعلى من اكتشفها أو جاء بها.

أمّا الصّنع فهو إظهار ما لم يكن ظاهرًا، أو إيجاد ما لم يكن بين اليدين موجودا، أو إظهار الشيء الظاهر على غير ظهوره إبداعا، أو استخراج الشيء من الشيء بطريقة أو أسلوب غير معتادٍ ولا مألوفٍ.

والصّنع أن يتمّ الإتيان بما لم يسبق لأحدٍ الإتيان به، وهو نتاج التفكير المفتوح؛ إذ لا سقف يحدّه ولا موانع تكبحه، أمّا الخارقة فهي بلوغ ما لم يكن متوقّعًا، والخوارق أعمال غير معجزة، أي: إنّها الممكِّنة، ولكنّها غير عامّة؛ فهي تحتاج إلى مقدرة عقلية تتجاوز ما يمكن تدبّره إلى ما يمكن بلوغه؛ كونه لم يكن مستحيلًا ولا معجزًا. والخارقة تقود أصحابها فكرًا إلى الإبداع الممكّن من معرفة ما كان مستغربًا مع أنّ آمله غير ذلك؛ كونه قد صاغ له تساؤلات، وإن كانت بالنسبة إليه على غير عادة.

وعليه: فالإنسان مؤهّل للارتقاء أملًا وحسًّا؛ فهو يتذكّر؛ ليتّعظ ويُصلح، ويتدبّر؛ ليبني وينتج، ويفكّر؛ لإيجاد خارقة بها يصنع مستقبلًا راقيًا، يَرتق الأرض بالسّماء.

ولأنَّ صُنع الخوارق لم يكن مستحيلًا فَلِمَ لا تُصنع باستمرار تحدّيًا للعقل بملكاته العقلية؟ فالعقل دائمًا مَكمن الخوارق، فمن بلغ عقله عقلًا

عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازًا، ومن بقي في دائرة المتوقّع فلا إمكانية لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن غير المتوقّع.

ومن ثمّ كان المستحيل كونًا متسعًا ومتسارعًا في تمدّده، وكان الأمل يلاحقه بغاية معرفته مأمولًا، ومع ذلك لا زال قاصرًا عن معرفته على الرّغم من الأمل العريض.

فالكون لو لم يكن عملًا مستحيلًا ما كان انفجاره أو فتقه عظيما، ومع أنَّ المستحيل شيء يتحقّق، لكنّه لا يوصف بشيء، أي: لو لم يكن المستحيل شيئًا ما تحدّثنا عنه، ولأنّه شيء ونتحدث عنه فهو يشغلنا حيرة تدفعنا تجاه معرفة مَن وراءه؛ فنحن نقف عاجزين أمام توصيف المستحيل الذي مهما تدبّرنا أمره؛ فليس لنا إلّا التسليم، الذي يقرّ بوجود واجد له، ولا يكون إلّا أعظم منه؛ ومن ثمّ؛ فلا يوجد شيء، أو يخلق لو لم يكن من ورائه خالق.

ومن هنا افترق بعض قليل من النَّاس مع معظم النَّاس؛ فالقليل منهم وقف عند معجزة المستحيل في ذاته، أمّا معظم النّاس فلا يؤمنون بعظمة المستحيل إلّا بعظمة فاعله المطلق الذي خلقه حائلًا لا يخترق مهما آمل الآملون.

ولأنَّ المستحيل نتاج طاقة وقوّة؛ فهو فعل يُفعل؛ فينتج عملًا قابلًا للملاحظة والمشاهدة، ولأنّنا نقف أمام المستحيل عاجزين؛ فَلِمَ لا نقف أكثر عجزًا أمام الفعّال له؟

فعلماء الفيزياء اكتشفوا أنّ الكون يتمدّد متسارعًا، وهم عاجزون عن إيقافه، بل هم عاجزون عن قياس سرعة تمدّده، كما أنّهم عاجزون عن معرفة نقط صفر النّهاية التي سيتوقّف عندها، ومع ذلك يرى بعضهم أنّ الكون يتمدّد متسارعا، ولا شيء وراء تمدّده متسارعًا، أي: لا إله من ورائه، وكأنّه تمدّد بلا غاية.

ومع ذلك أجمع علماء الفلك والفيزياء على أنّ للكون نهاية، وليس له بدّ إلّا بلوغها، وهي الانكماش أو التجمّد أو الانفجار الذي ينهي تمدّده المتسارع ويقفه عند حدّه، أو يكون سببا في إعادة تشكيله من جديد، أو كما نرى نحن إعادة رتقه مع الأكوان الأخرى التي سبق وأن فُتقت؛ لتعود إلى حالتها الطبيعية التي خُلقت عليها؛ عوضًا عن الحالة التي أصبحت عليها طِباقًا.

وبما أنّ الفزيائيين واثقون من نهاية الكون؛ فالسؤال:

من الذي وضع له نهاية؟ ثمّ كيف وضع الكون لنفسه حدًّا كما يظنون وهو لم يصل إليه بعد؟

أقول:

كلّ ما قيل في هذه الخصوصية؛ ليس بحكم علمي، بل مجرّد آراء لا تتعدي نظرات أصحابها الذين انبهروا بما رأوه من مستحيلات حتى ظنوا أنّها الخالق؛ وهم بهذه النظرة، كمن لا يميّز بين الخالق وما خَلق. ولكن،

وفقا لقاعدة المستحيل المؤسّسة على خَلق الشيء من لا شيء؛ فلا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، وسيظل الأمر: كلّ شيء من ورائه مشيء حتى بلوغ المستحيل الذي لم يكن من ورائه إلّا المستحيل الذي يؤدّي بالواعين إلى التّسليم الذي لا يجعل لآمالهم فسحة إلّا فيما دون المستحيل والمعجز.

ومثلما يكون وراء كلّ شيءٍ شيءٌ كما هو حال بنو آدم الذين هم من نطفة، وآدم من تراب؛ فكذلك يكون وراء كلّ مستحيل يشاهد ويلاحظ مستحيلٌ لا يمكن مشاهدته ولا ملاحظته، مع أنَّه يُدرك استحالة؛ فالمستحيل كفعل يتحقّق عملًا؛ فهو: مثل خلق الكون، والحياة والموت والشّروق والغروب، أمّا المستحيل كذات فلا يتجسّد في شيء يمكن أن يكون من ورائه شيء آخر؛ فيصبح التسليم به إعجازًا حيث لا شكّ في وجوده، والمستحيلًات تتحقّق بين أيدي النّاس في كلّ جزئية من الزّمان ، ولا أحد يستطيع إيقافها أو الحدّ منها وإن عظمت آماله؛ ولذا؛ فمعرفة المستحيل تُمكّن من معرفة مستحيلات أعظم حتى بلوغ المستحيل مستحيلا.

فالكون الذي قالوا عنه خُلق من لا شيء ولا خالق من ورائه؛ فبقولهم هذا يعترفون بوجوده، والخالق من ورائه، وإلّا لماذا قالوا: (خُلق من لا شيء) فكلمة (خُلق) تعيد أمر الخلق للخالق، وليس للشيء المشار إليه بأنّه قد خُلق من لا شيء.

ولأنَّ وجود الكون شيءٌ مستحيلٌ؛ فلا شكّ أن من ورائه ما هو أعظم استحالة، وهنا يكمن القصور بين إدراك المستحيل الأوّل (الخالق) وما يراه المستحيل اللاحق (الإنسان) الذي خُلق مستحيلًا؛ فالإنسان مع أنَّه خُلق مستحيلًا، لكنّه لا يخلق المستحيل؛ ولهذا فالقاعدة:

(من يَخلق المستحيل لا يُخلق).

ولأنَّ من يخلق المستحيل لا يُخلق، والكون خَلق مستحيل؛ إذن: فالمستحيل (الكون) يُخلق وخالقه لا يُخلق؛ ولهذا كان خلق الكون مستحيلًا مثله مثل أيّ مستحيل.

والقاعدة الخلقية تقول:

(المستحيل قوّة تَخرِق ولا تُخرَق).

ولأنَّ المستحيل قوّة اختراق لكلّ قوّة وإن اجتمعت، فقوّة الكون تمدّدًا وتسارعًا ستقف وتنتهي انكماشًا أو انفجارًا عظيمًا، أو رتقا أعظم، وهذا يدلّ على وجود مسيّرٍ للمستحيل، وموقف له، أو مفجّر، أو راتق له؛ حيث لا استحالة أمام الفعل المستحيل. وهنا تقف الآمال عاجزة، ومن ثمّ ليس لها إلّا التسليم.

ولذا فالتوقّف عند المستحيل عن وعي، يمكّن من عدم الوقوف عنده نهاية؛ فالمستحيل فعل لا يتحقّق إلّا وفق مشيئة فاعله، وهو الذي ينبغي

أن يدرك بمشاهدة وملاحظة مستحيلاته؛ حتى يدرك أنَّ إدراكه مشاهدة وملاحظة هو الاستحالة بعينها؛ ولذلك فالقاعدة الخَلقيّة تقول:

(المصوِّرُ المطلق يرى ولا يُرى).

وعليه فلا إمكانيَّة لرؤية المصوِّر المطلق؛ كونه لا يُصوَّر؛ ولهذا فخالق الشيء لا يمكن أن يكون الشيء؛ ذلك لأنَّ الشيء يُخلق، والمشيء لا يُخلق.

ولأنَّ المشيء لا يمكن أن يكون شيئًا، إذن: فكيف للكون كونه شيئا أن يكون مشيئا لخَلق ذاته؟

هذا ما ارتأه بعض علماء الفيزياء الذين وقفوا على معجزات الخالق وكأنّها خالقة لنفسها، ومن لا شيء، وفي هذا الشأن وكأنّهم يقولون: نحن خُلقنا شيئًا من لا شيء، في الوقت الذي هم فيه يعلمون أنّهم قد خُلقوا من ترابٍ. وإلّا كيف يقبلون بخلقهم من تراب وهم يعلمون أنّ أباهم آدم لم يخلق نفسه، وهو من تراب، أي: بما أنّ آدم من تراب، ولم يكن ترابا؛ فمن الذي خلقه آدمَ؟

إنَّ هذه القاعدة تسري بالتّمام على خَلق الكون الذي قالوا عنه: إنَّه من ذلك الانفجار العظيم لتلك الذّرة التي لم يقولوا عن خلقها شيئًا، وهي التي لو لم تُخلق ما كانت ذرة، وما انفجرت كونا عظيما كما يدّعون بلا دليل سوى وجود أثرٍ يشير إلى الانفجار، أو يشير إلى ما يشبه الانفجار،

في الوقت الذي قال فيه الخالق تعالى غير ذلك: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[21].

وبناء على هذا القول تساءلنا:

أيّهما أولى: أن نأخذ بقول الخَالق، أم أن نأخذ بقول المخلوق؟ ومع ذلك قبلنا قول المخلوق لنأخذ بقول الخالق.

فالخالق الذي خَلق الكون، وكوّر فيه النّجوم والكواكب كما كوّر منه الأرض التي خُلق الإنسان الأوّل من ترابها عندما كانت مرتقة في السّماوات جنّة، قال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[22]، فكيف بمن لم يكن سابقا على قوله تعالى، أن يقول: إنّ الكون خَلق نفسه؟

وكيف أقنع نفسه بذلك مع أنَّ ما بلغه من معرفة لم يكن ولادة أمل حتى يكون بين أيدي النّاس دليلًا شاهدا في معامل ومختبرات البحث العلمي المتقدّمة؟

وإذا سلّم من سلّم بهذا القول؛ فسيجد نفسه في مواجهة مع خلق نفسه التي لم يخلقها. وبتسليمه هذا ليس له بدّ إلّا الاعتراف بأنّه لا إمكانيَّة أن يخلق الشيء نفسه. أي: كيف لمن يعرف أنّه خُلق من نطفة أن يقول شيئا غيرها؟

---

[21] الأنبياء 30.

[22] الزّمر 62.

ولأنَّ قاعدة الخَلق تقول: (الشيء يُخلق ولا يَخلق).

إذن: فمن خُلق من نطفة ليس له بدّ إلّا استمداد قاعدة خلقه من شيء (تراب أو نطفة) ليستقرأ بها خلق الشيء الذي لا يمكن أن يخلق نفسه. إنَّها المسلّمة لمن يدرك أنّه لم يَخلق نفسه؛ لكونه يدرك خلقه من النطفة التي من قبلها يعلم أنّها لولا التزاوج ما كانت، وكذلك من قبلها يدرك أنّ أبويه (آدم وزوجه) لم يكونا من نطفة، وهنا تكمن العلّة التي قفز عنها بعض من علماء الفيزياء بقولهم: إنّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ومع أنَّهم يؤمنون بخلق الأشياء، ولكنّهم عندما وقفوا عند أكبرها (الكون)، قالوا: إنّه شيء، ولكنّه خالق. وهذا ما يتعارض مع قواعد الخَلق:

. هيئة الشيء تسبق الشيء وجودا.

. وراء كلّ شيء مشيئة.

. وراء كلّ مخلوق خالق.

. الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه.

ولذا فالكون لو لم يكن له مكوِّن ما كان كونا، والخَلقُ لو لم يكن من ورائهم خالق ما خُلقوا، والعلم لو لم يكن من ورائه العالم ما عُلّم: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[23].

[23] البقرة 31.

وعليه:

فالمستحيل فعل، والفعل لا يشاهد ولا يلاحظ إلّا إذا تجسّد في عملٍ؛ ولذلك فالمستحيل طاقة تُمكّن من إيجاد ما لم يسبق وجوده؛ ومن ثمّ فالمستحيل فعل أوجد كونا متمدّدا ومتسارعا في تمدّده، ثمّ خُلق منه، وفيه ما خلق مستحيلًا، وكلّ ما خُلق استحالة لا يُخلق ممّن لا يتجاوز جهده دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع وإنّ كان يأمل ذلك.

ولأنَّ الكون خُلق خَلقا مستحيلًا؛ إذن: فلا إمكانيَّة لخلق كون مثله إلّا من الذي خَلقه مستحيلًا، ومن هنا، استقرأ علماء الفيزياء والفلك، وجود أكوان أخرى خارج كوننا المتمدّد تسارعا، ومع أنَّهم اكتشفوا معطيات تشير لذلك، فإنَّ ما هو أعظم: إنَّ الخالق قد أخبر عنها وضوحا، ويا ليتهم يطَّلِعوا على الكتاب؛ لعلّهم يرشدون إلى ما هو أعظم علما ومعرفة. {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[24]؛ فقوله (كيف خلق) هنا يكمن المستحيل حيث لا إمكانيَّة لمعرفة الكيفيَّات التي بها خلقت الأكوان طِباقا، ولأنّ معرفة (كيف؟) أمر مستحيل؛ فأخبرنا الخالق عن (الكيف) بقوله: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[25]. أي: بعد أن كان الكون ملتحما سماوات وأراضين، فُتق مستحيلًا إلى سبع

[24] نوح 15.

[25] الأنبياء 30.

سماوات وسبع أراضين، وبما أنَّنا نعلم بفتق الأكوان؛ فَلِمَ لا نبحث؛ حتى نكتشفها مستحيلًا بعد مستحيل.

ولذلك فالأرض لا تَخلق الأرض، والسّماء لا تَخلق السّماء، وعالم الفيزياء لم يلد نفسه ولم يخلقها، وحتى إن خُلق الشبيه بأيّ مفتاح من مفاتيح العلم، فلن يُخلق الشبيه البشري إلّا من خلية حيّة، وحتى إن خلق الشبيه فسيظل شبيهًا؛ ولذلك فقضية الخلق (الحياة) لن تكون إلّا بيد من بيده أمر الحياة.

ولأنَّ المستحيل لا يمكن أن يُدرك إلّا عندما يصبح شيئًا مفعولًا، إذن: فالمستحيل عندما يتجسّد في عمل يصبح مفعولًا شكلًا، أو صورةً، أو شيئًا مشاهدًا وملاحظًا، ولأنّه المفعول؛ فلا يكون إلّا بفعل الفاعل، ولأنَّه بفعل فاعل المستحيل فهو لم يَخلق نفسه، بل من ورائه خالق المستحيل الذي لم تتمكّن عقول بعض الفيزيائيين من التمييز بينه وبين فعله الإعجازي، فعقول بعضهم وقفت عند المستحيل وكأنّه الخالق، وهنا تكمن العلّة المعيقة للبعض من الارتقاء وإحداث النُّقلة؛ ولهذا وجب على الإنسان أن يأمل ويسعى عملًا جادا من أجل بلوغ المأمول العلمي، و نأمل له نيله، شريطة أن يكون نتاج تساؤلات وفروض علمية، بحيث يبرهن لنا تجربة يمكن تكرارها ومشاهدة الحقائق البعيدة من خلالها قريبة.

ولذلك فالكون لو لم يكن مخلوقا ما كان مستحيلًا، والاستحالة من أجل أن تُدرك ينبغي أن تلاحق، وتتابع استحالة بعد استحالة، وكأنّها

تتدرّج من الأصعب إلى الصّعب، فخَلق الكون وتسييره أكبر المستحيلات التي تمّ إدراكها عقلا، ثمّ خَلق المشاهد في ظُلمة، فيها خُلقت الأرض كما خُلقت النّجوم والكواكب والمجرّات، ثمّ خلقت الأزواج من الأرض وهي مرتقة في السّماء، ثمّ من بعدها خُلق التكاثر تزاوجا، فكلّ هذه المخلوقات هي نتاج الفعل المستحيل؛ ولذلك فبمقارنة خلق الأزواج من الأرض وهو الأقرب لعقول البشر، نجد أنّ الخلق من لا شيء (خلق الكون) يبدو وكأنّه أصعب من خلق الأرض، وهكذا خَلق الأرض يبدو وكأنّه أصعب من خلق آدم وزوجه المخلوقين منها، وكذلك الخلق من التزاوج على الصّعوبة التي لا تقارن لو لم يكن هناك ما هو أعظم خلقًا منه.

ومع أنّنا ندرك أنّه لا صعوبة بالنّسبة إلى الخالق؛ كونه يخلق بأمره ما يشاء متى ما يشاء، وأينما يشاء، وكيفما يشاء، ولكن لتقريب المعنى وتوصيل المفهوم دلالة استمددنا مثالًا توضيحيًّا للمستحيل الذي لا يكون إلّا مخلوقا ومفعولا من خالق يَخلقه ويفعله؛ ولذلك فلا وجود للصّعب على من بيده أمر الخلق استحالة، ولكنّ الصّعب يواجه من يحاول بجهده ومقدرته المحدودة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

فالمستحيل فعلٌ لا تواجهه الصّعوبة، بل الصّعوبة تواجه الممكن الذي لا يكون إلّا في حدود الجهد والإمكانات المتاحة؛ فالمستحيل لا علاقة له بالجهد، بل له علاقة بالفعل المطلق الذي لا يكون إلّا بيد من فعل

المستحيل الذي به خُلق الكون تمدّدا وتسارعًا إلى النّهاية التي من بعدها ستؤول الأكوان كونًا مرتقًا.

ولذا فعندما تُرتق الأرضون والسّماوات يعود الكون كما خُلق أوّل مرّة: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[26]؛ فالوجود هكذا سيكون بين تمدّد وانكماش حتى النّهاية التي تعتدل فيها الأكوان على كرسي خلقها بلا استحالة.

فالمستحيل لا يكون بالعمل، بل المستحيل لا يكون إلّا بالفعلِ؛ ذلك لأنَّ العمل يتحقّق وفقا لما يُبذل من جهد، وما ينجز منه، أمَّا الفعل فلا يتحقّق إلّا بفعل الفعّال، حيث لا حاجة للجهد (كن فيكون)، وعن غير مقارنة فأنا مثل غيري بنظرات عيني فقط أقول لأبنائي: اصمتوا، أو اجلسوا، أو اخرجوا؛ فما بالك بخالقي وخالق الكون وكلّ شيء مستحيل، ألا تكفي كلمة (كن)؟

وعليه:

فكلِّ ما لم يكن مستحيلًا هو ممكن، وهنا تصنع الآمال وتولد أمل من بعد أمل، والفرق بين الممكن والمستحيل، هو: أنّ الممكن قابل للإثبات أو الاكتشاف، وهو في حاجة لمن يبرهن على معطيات وجوده، وهو قابل

[26] الرّوم 11.

للإثبات مثلما هو قابل للنّفي والرّفض، وقابل للظّهور مثلما هو قابل للكمون، وقابلٌ لأن يكون أملًا من أجل مأمول.

ولهذا لو لم يكن الممكن ممكنًا ما تمَّ إثباته واكتشافه وظهوره وكمونه والشّكّ فيه، ومقارنته مع غيره، أو معرفة مدى ترابطه، أو ثباته، أو اهتزازه.

أمَّا المستحيل: فهو المثبت الذي نعلم به ولا نعرف كيفيته إن لم يخبرنا عنها فاعله تعالى فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بيوم البعث، ولكنّهم استحالة لا يعرفونه، ولا يعلمون ساعته؛ ولذلك فالخلائق تموت ولا أحد يستطيع إيقاف الموت عنها، والأحياء يخلقون ولا أحد يستطيع بث الحياة فيهم إن لم يولدوا أحياء، وهكذا الشّمس تشرق وتغرب، ولن يستطيع أحد تغيير أمرها أو تبديله.

ولأنَّ وجود المستحيل لا يُنفى، ولا يُلغى، ولا يُقدّم ولا يؤخّر؛ فهو متحقّق، في زمن المفاجأة، فالصّواعق والزّلازل والبراكين لا بدّ وأن تحدث، ولكن ينبغي لنا أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنها، وكذلك المرض آتٍ ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنه، ويشفي منه، والصّحة تضعف، والعمل على تقويتها ضرورة ممكنة، والموت لا شكّ أنّه آتٍ وإن أطلنا في أعمارنا وبلغنا عمر نوح عليه السّلام أو حتى تجاوزناه سنينَ، فكلّ ذلك ممكن علما وبحثا ومعرفة. ولكن أن نلغي الحياة أو الموت حتى وإن دمّرنا ما يمكن لنا تدميره فلا إمكانيَّة، وهنا يكمن المستحيل، أي: إنّ أمر المستحيل بين يدي فاعله أمرا نافذا، فعلى سبيل المثال: عندما يكون اليوم

السّبت فإنّ يوم الأحد سيأتي غدا وفقا لِعِلمنا ومعرفتنا، ولكن يستحيل أن يحدث الانفجار العظيم ثانية، أو ينكمش الكون، أو أن يُرتق في لحظة المفاجأة، ولن يأتي الأحد غدا كما هو متوقّع، وهذا الأمل يسري على المأمول؛ إذ ليس كلّ الآمال تتحقق وإن كان المأمول قابل للنيل.

ذلك لأنَّ المستحيل هو فعل يُفعل بغتة (في زمن المفاجأة)، وهو الذي يحتوي دائرة الممكن، والممكن لا يحتويه؛ فالممكن لا يكون إلّا وفقا للاستطاعة، ولا يتحقّق إلّا على أيدينا، أمّا المستحيل فهو ما لا تستطيع قوّتنا فعله، ولا أيدنا عمله، ولا عقولنا إدراكه ومعرفة كيفيّته، ومع ذلك فمن الضّرورة التفكير فيه بعمق ودون ملل؛ فالملل يحول بين الحقيقة والباحثين عنها.

ولذا ينبغي على البحاث إن أرادوا معرفة المجهول، أن يصوغوا له تساؤلات؛ فالتساؤلات تقود إلى معرفة المجهول في دائرة الممكن، ومن ثمّ فالبحاث الذين يعتمدون على صياغة الفروض العلميَّة لن يتمكّنوا من معرفة المجهول، بل إنَّهم يتمكّنون فقط من معرفة النّصف المتبقي من المعرفة المتوفّرة لديهم، فالفروض وأن عظمت نتائجها لا تصاغ إلّا ونصف المعلومة غير مجهول، وللضّرورة هم يبحثون بهدف معرفة ما يتمّم نصف ما لديهم من معرفة.

ولذلك وجب تقدير الشّطحات العلميَّة؛ فهي في دائرة الممكن قد تؤدّي إلى معرفة المجهول، أمّا بالنّسبة إلى ما هو مستحيل فالشّطحات

عندما تكون موضوعيَّة تمكّن من معرفته، وإن قصرت عن معرفة الكيفيَّة التي هو عليها، ولكن عندما تكون الشّطحات غير موضوعية فهي بلا شكّ ستزيد الهوة اتساعا بين ما هو مستحيل، وما ينبغي للإنسان أن يتمكّن من معرفته وإدراكه.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن تكون المناهج تدبّريَّة مقتصرة على الوقت الحاضر، بل ينبغي أن تكون تطلّعية، تستوعب الحاضر تدبّرًا ولا تقتصر عليه؛ فالتدبّر لا يكون إلّا وفق الإمكانات المتاحة في الوقت الحاضر، أمّا التطلّع فهو البحث عمّا يُحدث النُّقلّة إلى ما هو أفضل وأكثر ارتقاءً.

ولذلك فالتّطلّع يُمكّن الآمل من مأموله كما يمكّنه من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنه من تجاوزه ارتقاء، ومن ثمّ إذا أردنا معرفة المستحيل وبلوغه استحالة، فلا ينبغي أن توضع إشارة قِفْ أمام التفكير العلمي لبني آدم. بل ينبغي أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملًا متحقّقا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة، والذي بوجوده بعيدًا عنّا يفسح لعقولنا مجالات التفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع. أي: ينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية مقدّرة، حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلًا؛ ولذا فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ وجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب؛ ولذلك خُلقنا.

ولأنَّنا خُلقنا لذلك؛ فينبغي لنا أن نأمل ونعمل، والمستحيل نصب أعيُننا، حتى ندركه عجزا، وحينها ندرك أنَّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان صعبًا غير متوقّعٍ.

ولأنّه المستحيل؛ فهو لا يعيق العمل ارتقاء، بل الذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة ونيل المأمول هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفليَّة التخلّف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني، {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}[27].

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المقوّم للارتقاء، وليس للدّونية، ولكن لأنّ الارتقاء والدّونية يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكُّرًا وتدبُّرًا وتفكُّرًا؛ فهما بيد الإنسان رغبة واختيارًا؛ ولذلك ينبغي لبني آدم أن يأملوا ويعملوا كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى إحداث النُّقلة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاء.

وعليه:

فالفعل المستحيل لا يكون إلّا خَلقًا، ولأنَّه كذلك فلا يكون إلّا إعجازا، حيث لا إمكانيَّة لخلق الشيء شيئا إلّا بمشيء، وحتى إن عُدنا لذلك التّساؤل الذي كنّا نطرحه على أنفسنا أيّام المراهقة والثانويَّة، وهو:

[27] الكهف 88.

من الذي خلق الخالق؟ وكيف كان قبل أن يخلق ما خَلق؟

أقول:

بما أنَّنا نقول الخالق، إذن: فلا ينبغي لنا أن نسأل عمّن خلق الخالق؟ أي: كيف لنا من زاوية نقول: الخالق، ومن زاوية أخرى نسأل عنه؟ إنّه الخالق الذي يخلق ولا يُخلق، ومن ثمّ فكلّ شيء يُخلق ليس بالخالق؛ ولذا فلا فواصل بين الخالق وخَلقه، فالخالق ليس على الصّورة ليكون موجودًا قبل أن يخلق الخلائق؛ ولذلك فالسؤال ليس في محلّه، لأنّ السّائل جعل في ذهنه هيئة للخالق، وهنا تكمن العلّة، حيث لا هيئة للخالق، بل له مشيئة، والمشيئة هي فعل المستحيل، والتفكير في الفعل المستحيل يجعل السّائل في حيرة من أمره بعلّة في نفسه، وهي: اختلاط فكرته عن الخالق الذي لا يُصوّر بما هو على هيئة الصّورة، وبالتّالي فمن يتصوّر لله هيئة، يجعله وكأنّه داخل الإحاطة، ومن يفكّر داخل الإحاطة؛ فتفكيره لا يزيد عن كونه تفكير كتكوت داخل البيضة، والذي لا إمكانيَّة له في رؤية عالم أعظم من عالمه داخل البيضة؛ ولذلك فهيئة الله بلا هيئة، وصورة الله بلا صورة، ومن هنا فنحن غير عاجزين عن معرفة الله، ولا يليق بنا أن نسأل عمّن بيده الأمر (كن) كيف كان؟

نعم، الله لم يكن، حتى نسأل عنه كيف كان فمثل هذا السؤال يتعلّق بمن لم يكن فكان، كما هو حال الكون الذي كما يقولون عنه: كان نتاج ذلك الانفجار العظيم سببا، وكما هو حال الأزواج التي لو لم تكن الأرض

كائنة ما خُلقت منها الأزواج سببًا، وغيرها كثير من الخلائق التي قبل خلقها لم تكن بخلائق.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن يكون السؤال: كيف كان الله؟

بل ينبغي أن يكون السؤال: من هو الله؟ وما هي صفاته؟

فالله هو الذي يُسمّى بهذا الاسم، وهو الذي لم يكن كائنا، حتى يسأل عنه كيف كان؛ ولذلك فالكائن لا يكون إلّا على هيئة يراد له أن يكون عليها فيكون؛ وبالتالي فأيّ كائنٍ لا يكون إلّا على هيئته ووفق مشيئة ليست بيده، ومن هنا؛ فنحن ندرك الكون علما، ولكنّا لا ندرك هيئته، وكيف لنا بهذا ونحن لم ندرك صورة الكون متكاملة؟ أي: كيف لنا بهذا ونحن داخل محيط الكون الذي لم نتمكّن بعد من الخروج عنه بأيّ سبب، ومع ذلك يمكن لنا أن نتصوّر الكون لكوننا جزءًا فيه أو حتى إنّنا أقل من ذلك بكثير، أمّا الخالق فهو على غير هيئة؛ كونه على غير صورة، وبالتالي لا إمكانيَّة لوضعه في أيّ هيئة ذهنية، ولا يليق بعقولنا ومدركاتنا التي أدركته استحالة أن تجعله على هيئة أو صورة وهو لم يضع نفسه فيها؟

ومن ثمّ فالله يخلق غيره، وغيره لا يخلقه، وبالعودة إلى السؤال: كيف كان الله؟

فالله لا يكون.

ومن هنا فالسُّؤال لا علاقة له بمن يُسأل عنه، بل له علاقة بالسّائل، الذي لا يعرف من كينونته إلّا أنَّه من نطفة، ومن قبلها من تراب، ولا شيء غير ذلك، ومع ذلك يسأل: كيف كان الله؟

أي: ألا يكفي إجابة علمه أنَّهُ قاصرٌ عن معرفة كيفيّة خلقه التي ليس له رأي فيها؟ ويسأل عن كيف كان الله؟

أقول:

عليك بالبحث في الكون بلا توقّف؛ لعلّك تعرف: كيف خُلق؟ وكيف كانت له هيئة قبل أن يُخلق؟ ووفق أيّة مشيئة هو خُلق؟ وكذلك عليك بالبحث في نفسك؛ لعلك تعرف: كيف خُلقت؟ وكيف كانت لنفسك هيئة قبل أن تُخلق؟ ووفق أيّة مشيئة هي خلقت؟ وعليك أن تفكّر فيما تفكّر فيه قبل أن تتكلّم وتقرّر أو تعمل، فإن فعلت ذلك عن وعي، لا شكّ إنّك ستدرك أنّ صفات الله تتعدد بتعدد نعمه، وهو الواحد الذي لا يتعدّد.

صناعةُ الأمل:

مع أنَّ الأمل مفهوم ليس بمادّي، فإنَّ القيم النّافعة تصنعه عملًا يُمكِّن من بلوغ القمَّة، ولهذا فمن عِمل والأمل لا يفارقه سيبلغ غايته وينال مأموله الذي كان مجرَّد أملًا؛ ولذا فالأمل كونه استشعار الحيويَّة والمقدرة فهو قابل لأن يتمدّد قوّة تجاه المأمول رغبة وإرادة، ومع ذلك فالأمل لم يكن قالبًا

جاهزًا، بل مولود تلك الحيرة، التي تجول في العقل، وتستفزّه تفكيرًا وبحثًا عمّا يجب؛ حتى يَرشُدَ معرفة تقتنص مأمولًا، يستوجب جهدًا يبذل لنيله.

ومن ثمّ فالأمل لا يصنع إلّا والحيرة تسبقه تفكيرًا وبحثًا وتدبّرًا حتى تنجلي غيوم الذّهن والنفس عن فكرة ترشد لما يفكّ التأزمات، ويخلّص من القلق ويمكّن من العمل المنقذ ممّا يخيف ويؤلم.

ولأنَّ الفكرة أملًا مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه، ولّدت منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النّاس، وهي لا تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباها لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين المحيّر والمأمول.

ومع أنَّ الفكرة تخلّص من الحيرة، فإنَّها لا تكون ارتقاء إلّا من بعدها؛ فالحيرة بالنّسبة إلى الفكرة تعد مخاض ولادة، وولادة الفكرة من دون حيرة تسبقها، هي: ولادة قسرية؛ فلا يمكن أن يتطابق الزّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريتها، فتولد مشوّهة، وبالتالي ستكون الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف للمأمول ارتقاء.

ومع أنَّ هذا الأمر يعد سالبًا بالنّسبة إلى الفكرة ارتقاء، فإنَّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تخرج من التأزّم.

ومع أنَّ زمن الحيرة الفكرية مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، ولكنّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنّفس، وما يسرّ الغير ارتقاء؛ ولذلك فالبحوث العلميَّة ارتقاء تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الجديد المحفّزّ على حيرة جديدة من بعدها محيرات تُمكّن من إضافة ما هو أفيد وأنفع.

إذن: فلا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يُقتنص له حلّ، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشيء استحالة أو إعجازًا أو ممكنًا حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة تلد له أملا وحلّا.

وهذا لا يعني: أن تكون الحيرة غاية في ذاتها، بل الغاية من ورائها مأمول، ولكن هذا الأمر يتطلّب مقدرة على تحدّي المقلق بما يُقلقه، حتى يصبح القلق بولادة الفكرة في خبر كان؛ فأهل العلم والبحث العلمي لا يمكن أن يصلوا إلى غاية الارتقاء إلّا بعد الحيرة، ومن لا يقبل الجلوس مع الحيرة تحدٍّ؛ فلا إمكانيَّة لأن يُكتب له التحدّي في ميادين العلم والمعرفة المصنّفة.

فالحيرة العلميَّة لا تواجه إلا الجادّين؛ ولهذا ينبغي أن نعرف أنّ الحيرة درجة متقدّمة من التفكير العلمي الذي ينبغي للباحث تقبُّله وعدم الحياد عنه إلى أن يصل بتفكيره المنظّم إلى الانتباه الذي يقوده إلى الاختيار، واتخاذ القرار عن وعي وإرادة ويقين حيث لا خروج من الحيرة العلميَّة إلا

بتحديد موضوع البحث الذي تمحور على إشكالية لا مفرّ من البحث فيها إن أردنا بلوغ المأمول ونيله.

وكما أنّ الحيرة يقظة عقليَّة تستوجب مواجهة القلق بما يُقلقه؛ فكذلك الصّعب يعد معطية مثيرة للعقل ومستفّزة لملكاته التي تتحفّز إلى المواجهة معه متى ما اعترض طريقها، ومن هنا بدأت مواجهة العقل للصّعب تحدٍّ من ورائه تحدٍّ، وفي المقابل الصّعب يقدِّم التنازل من بعد التنازل.

فالصّعب ليس بالمستحيل ولا المعجز، حتى يستحال تحدّيه، بل ميادين تحدي الصّعب فسيحة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع وبخاصّة من الآملين، فهم لا يخافون مواجهة الصّعب، بل الخوف بالنسبة إليهم ألا تحدث المواجهة معه؛ فالمواجهة العقلية معه كلّما حدثت عن تدبّر فكرة أنتج العقل فكرة أكثر ارتقاء؛ ولذا ستظل الفكرة عقلية إلى حين استخراجها فيما يمكن أن يكون على الشّكل أو الصّورة، أو المفهوم والدّلالة والمعنى، والتجسّد سلوكا.

ومع أنَّ العقل مكمن الفكرة، فإنَّه أيضًا منبع الأمل، ومع أنَّهما معا من إعمال العقل وفي محفظته، فإنَّ الأمل يتعلّق بالغايات الخارجية، التي في دائرة الممكن لا تُبلغ إلّا تخييرا وإرادة؛ فمن يمتلك الإرادة يستطيع الاختيار الممكّن من التدبّر وحمْل المسؤوليَّة، ومن لا يمتلكها، فإشارة قف لا تسمح له بالعبور إلى ضفاف الارتقاء؛ ولذلك وراء كلّ غاية مأمول.

ولأنَّه الأمل صنعا فهو لم يكن معجزًا ولا مستحيلًا، ولأنّه لم يكن كذلك، فَلِمَ لا يُصنع! أي: لا استغراب من صنع الأمل، بل الاستغراب ألا يتم الإقدام على صنعه، وصنع الأمل يستوجب:

. إرادة.

. تحدّ.

. مقدرة.

. تخطيط.

. إعداد عدّة.

. صبر.

. إمكانات.

. عزيمة.

. إدارة زمن.

إذن: الأمل لا يُمنح من أحدٍ، فلا داعي للانتظار، أو حتى للالتفات، فمن أراد أملا فعليه بعقله دون الاتكاء على عقول الغير؛ فالغير يمكن أن يعطوك رأيًا أو يقدّموا لك رؤية، ولكنّهم لن يعطوك أملًا، حتى وإن أرشدوك إلى مستقبل يرونه أفضل؛ فلا تعتمد على أصابع الغير في حكّ جلدك.

الأمل تستفزّه الحاجة المدخلة للحيرة التي فيها يجد العقل نشاطه الفكري كلّما وجد الصبر في النفس مكانة، ولكن إن رفضته النفس قلقا، فلا إمكانيَّة لصناعة الأمل. وفي المقابل كلّما وثقت النفس في حيرة العقل فكرا، وجد الأمل مكانا يتربّع عليه؛ ولذلك تعد القلوب الصافية والنفوس الصافية أماكن ولادة الأمل تيسيرًا، أمّا أولئك الذين ضاقت نفوسهم حقدًا ومكرًا وكيدًا وحسدًا؛ فلا إمكانيَّة لديهم تصنع أملا.

فالأمل لا تصنعه الصدف، بل القصد وحده قادر على صنعه، فلم لا نتوجّه لصنع الأمل بما أنّ غيرنا قد صنعوا آمالا؟

ولهذا فصناعة الأمل تتطلّب:

. وضوح المأمول.

. مثابرة جادة.

. مكاشفة النفس.

. بذل الجهد.

. قبول دفع الثّمن.

. الاستعانة بأهل الحكمة والدراية.

. أخذ العبر من التاريخ.

. الدراية بما يجب قبل الإقدام على ما يجب.

وعليه:

. فكّر فيما تفكّر فيه؛ حتى يصبح أملا يشبع رغبة مرضية، ولا تكون على حساب الغير.

. جمّع قواك العقليَّة والفكريَّة وخطّط بما يمكّنك من تفادي الصّعاب وأنت تعمل من أجل بلوغ المأمول.

. حشّد الإمكانات، وعدّ العدّة المناسبة لبلوغ المأمول.

. انزع التردّد من نفسك، وتقدّم قوّة تصنع المستقبل المأمول قمّة.

. استعن بمن يمدّك قوّة، تُسهم في اختصار الزّمن وتقليل الخسائر.

. اعرف أنّك كلّما أنجزت هدفًا، وجب عليك تحديد أهدافًا أخرى أكثر أهميَّة حتى تحدث النُّقلة إلى الأفضل المرتقب.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكنٌ؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وإن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود؛ فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء؛ ولذلك فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقّع.

وعليه: فصُنع الأمل ارتقاء يستوجب:

. دفع أفراد المجتمع إلى العمل المنتج، الذي يُمكِّنهم من الوفرة التي تُسهِم في إشباع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة؛ ليعيشوا حياة تعليميَّة وصحيَّة واقتصاديَّة مرضية.

. دفع الأفراد إلى ميادين العمل المنتج التي فيها يتمكّنون من إشباع حاجاتهم للمشرب والمأكل والملبس والتنقّل، وإلا سيظلون في عوزٍ ممّا يجعلهم بعيدين عن محققات الرّفاهية الاجتماعيَّة، وصنع المستقبل ارتقاء.

. تفطين أفراد المجتمع إلى ما يؤدّي إلى إشباع الحاجات الضّرورية، وإلى ما يؤدّي من بعدها إلى إشباع الحاجات الكمالية المتطوِّرة.

. دفع أفراد المجتمع إلى زيادة الإنتاج؛ حيث الحاجات المتطوّرة التي تبحث عن مشبعات غير ثابتة، فما كان لا يعد حاجة ضرورية في الزّمن الماضي أصبح من الأولويات في هذا العصر، وهكذا هي الحاجات تتطوّر عبر العصور، وستظل دائمًا على هذه المنوال ارتقاء.

. تفطين مؤسّسات المجتمع الخدمية والإنتاجية وهيئاته وشركاته؛ لاستيعاب أفكار العاملين والمتعلمين، والاستجابة لمطالبهم المتطوّرة ورغباتهم المتنوّعة مع حركة التغير والتطوّر.

. تنظيم العلاقة بين رغبات العملاء وظروفهم الاجتماعيَّة والاقتصادية، التي قد لا تمكِّنهم من بلوغ مشبعات رغباتهم ما لم يستثمروا كلّ ما لديهم من طاقات، مع مضاعفة الجهد المبذول تجاه محقّقاتها.

. تفطين الأفراد إلى الانفتاح على الآخرين والتعرّف على ما يمتلكونه من منافع وعلوم وتقنية وتعلمها والأخذ بأسبابها، وتحذيرهم من الانغلاق داخل دائرة الذات الاجتماعيَّة

. تنمية روح الطموح والتّجدّد لدي أفراد المجتمع؛ حتى يتطلّعوا إلى صناعة المستقبل الذي يمدّهم بأسباب بناء الذّات ودخولها ميادين المنافسة والإنتاج العلمي والبناء الحضاري.

. ترشيد الأفراد بما يؤدّي بهم إلى تنظيم حياتهم وتقدير ظروفهم في ضوء الظّروف المحيطة والمتطوِّرة؛ ليكوِّنوا علاقات موجبة معها، حتى يتمكّنوا من مواكبة حركة التطوّر والتغير الإنساني في القرية الصّغيرة.

. استيعاب المتغيّرات الجديدة التي جعلت من العالم قرية صغيرة والترابط مع شبكاتها المعلوماتية؛ لأخذ المزيد المعرفي من أجل تحقيق حياة إنسانية شاملة.

. تفطين أفراد المجتمع إلى أخذ ما هو نافع وترك ما هو غير نافع، فالقرية الصّغيرة مملوءة بالجديد النّافع والجديد غير النّافع؛ فيجب التمييز قبل الإقدام.

. عدم الإغفال عن حقيقة مفادها (أنّ الحياة بطبيعتها في حالة تطوّر) فلا داعي للغفلة.

. تفطين الأفراد إلى استثمار ما لديهم من إمكانات وطاقات، والتطلّع إلى ما يفيد من قِبل الآخرين؛ حتى يتمكِنوا من العيش برفاهية واستجمام.

. حث أفراد المجتمع على التطلّع لأخذ المفيد للحياة الاجتماعيَّة والاقتصادية والسياسية، والإسراع بهم إلى أخذ المزيد وتطويره.

. دفع الأفراد لمواكبة حاجاتهم المتطوِّرة، وعدم التأخر عن ممارسة ما من شأنه أن يُعجِّل من طي المسافات بين النقطة التي هم عليها، ومحققات النقطة قمّة.

. التأكيد على أهميَّة بلوغ الجديد المفيد، الذي يُعزز ثقة الأفراد بأنفسهم وبذواتهم الاجتماعيَّة، ويحقّق لهم أبعاد إنسانيّة في المجالات الاقتصاديّة والسياسيّة والنفسيّة والذّوقيّة والثقافيَّة.

. تحريض مؤسّسات المجتمع على اختيار المعروض الأجود، ممّا وصل إليه التقدّم العلمي والتقني، والإقدام على تطويره؛ فالقوّة المبدعة في العالم لن تنتظر وستواصل التقدّم والتطوّر؛ فعلى مؤسّسات المجتمع وهيئاته وشركاته دخول ميادين السّباق العلمي وإلّا سيظل المجتمع قعيدًا في مؤسّسات الرّعاية الاجتماعيَّة؛ ذلك لأنَّ إشباع الحاجات ضرورة إنسانيّة، ولأنّ إشباع الحاجات ضرورة إنسانية، تأسست هيئات وجمعيات ومؤسّسات دوليَّة إنسانيَّة؛ لتقديم المساعدة لمن هم في حاجة إليها، سواء دول بحالها أم جماعات منها.

ومع أنَّ النَّاس يأملون المستقبل الأجود والأفيد، ولكن القليل منهم هم الذين يحملون أعباء بلوغه، أي: إنَّ بعض النَّاس يعمل على صُنعه وبعضهم الآخر ينتظره زمنا، فالذي يعمل على صُنعه يأتي إليه، أمّا أولئك المنتظرون سيظل الزّمن أمامهم مستقبلًا وهم يتمنّون؛ ولهذا الفرق كبير بين من يأمل ويعمل على بلوغ مأموله، ومن يتمنى فيبقى في أمانيه ساكنًا.

والنَّاس كلّ النَّاس هم بين آملٍ ومتمنٍّ، ولهذا فهم مختلفون وسيظلون كذلك، فالذين يأملون يعملون، ويسعون إلى معرفة وإنجاز المزيد، والذين يتمنون سيظلون يتمنون.

صُنع المستقبل المأمول رفعة يؤسّس لوطن فيه يسود المواطن دون سيادة مظالم، الرّجل والمرأة والصّغير والكبير هم رأس مال الوطن، ممّا يجعل ثروة الوطن ملك للجميع، والتعليم حقّ للجميع، والصّحة حقّ للجميع، والخدمات المتميّزة حقّ للجميع، والأمن حقّ للجميع، وأداء الواجبات حقّ على الجميع، وحمل المسؤوليَّة عبء يحمله الجميع، وكلّ وفق قدراته واستعداداته ومهاراته وتخصّصه وتأهيله وصلاحيّاته واختصاصاته، مع تقديم أفضل رعاية للمعاقين والعجزة والمرضى، وإعالة ورعاية من لا عائل لهم ولا راعٍ.

فالآمل لا يرى الحكومة والمجتمع المدني إلّا في حالة شراكة؛ فكلّ واحد ييسّر للآخر أعماله وكلّ واحد يقوم بمهمّة المراقبة على الآخر، ممّا يجعل ممارسة الحرّية بأسلوب ديمقراطي ماثلة بين يدي النّاس يمارسونها بكلّ

شفافيَّة، مع وافر الرّقابة المتبادلة بين مكوّنات المجتمع المدني والحكومة التي يتمّ اختيارها خبرة ودراية ومهنة وتخصّصًا ومكانة اجتماعيَّة وإنسانيَّة رائدة، وكلّ ذلك لا يتمّ إلّا تحت مظلّة الدّستور وما يتفرّع منه من قوانين ونظم مشرّعة؛ ولهذا لا داعي أن تضع الحكومة نفسها في كلّ مكان، فإن ارتأت ذلك؛ فلن تجد لها مكانًا، وإن فرضت نفسها بغير إرادة أهل الأرض سترهق أجهزتها الأمنية وإن كثرت.

ومن ثمّ عندما يصبح أهل الأرض (الشّعب) شركاء في إدارة الدّولة دستورا. سينتهي ذلك الدور الأمني (الشّك في الموطنين)، ويحلّ محلّه دور جديد (لا ثقة إلّا في الشّعب) وبالتالي لن يكون دورها مطاردة المنحرفين لمعاقبتهم، بل دورها جمعهم من أجل الإصلاح، ثمّ غرس الأمل في نفوسهم من أجل مستقبلٍ أفضل، وهكذا سيكون دور رجال البوليس احترام المواطنين وتقدير ظروفهم وتفهُّم أحوالهم، أي: العمل بشكل وثيق مع المواطنين؛ لتحسين مستويات الجماعة المحلية والسّلوك المدني، واستخدام الثّقافة والاقتناع والتشاور بدلًا من توجيه الاتّهامات بغير حقّ؛ ولذلك تسنّ القوانين التي ترشد إلى ما يجب، وتنهى وتحذِّر وتحرّم ما لا يجب، ثم تعاقب دون مظالم، ومن هنا تصبح تقويّة القانون ضرورة من أجل ممارسة الحرّية وبكلّ شفافية. فعندما يصبح المواطن صاحب سيادة في وطنه فلا إمكانيَّة لوجود متطرّفين ومرهبين بين الشعب؛ ذلك لأنّ عيون الشعب كلّها رقابة.

ولأجل التغيير من حالة التّعاسة إلى حالة الرّفاهية ينبغي ألّا يكون التركيز على تقديم المساعدات؛ فالاستمرار في تقديمها يجعل الاتكال والاستمرار في طلبها مستمرّا؛ ولهذا وجب غرس الآمال في عقول النَّاس، ودفعهم إلى العمل وتحفيزهم عليه.

الأملُ صُنعٌ وارتقاء:

الأمل مع أنَّه قيمة، فإنَّه إذا ما تمَّ صُنعه عن معرفة ودراية مكَّن صاحبه من بلوغ المأمول ونيله ارتقاء، مع أنَّ الأمل اسم مجرَّد، فإنَّ مفعوله (المأمول) مشاهد وملاحظ، ولأنَّ الأمل نتاج تفكُّر وتدبُّر، فهو الذي لا يكون إلَّا عن رغبة ودراية بما يجب الإقدام عليه، وما ينبغي الاحجام عنه.

ولهذا فالأمل ارتقاءً لا يكون إلّا والمأمول نافع ومفيد، وأنّ الآمل لا يسعى إلّا لما يفيد، ومن هنا يوصف المأمول بالقمّة؛ فيصبح الارتقاء رفعة عن كلّ ما يؤدّي بأصحابه إلى السُّفليَّة والدّونيَّة، فيؤخذ بالقيم الحميدة والفضائل الخيرة مع وافر التقدير والاحترام للأفراد والجماعات والمجتمعات والحضارات والثقافات والأديان، كما أنّه يُمكّن من التوافق والاندماج الذي فيه الإنسان قيمة في ذاته؛ فلا يهان، ولا يقلل من شأنه، ولا يحرم من ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وحمْل مسؤولياته. والارتقاء قد يكون بأسباب العلم والثقافة وحسن المعرفة، وقد يكون نتاج التربية وتهذيب السلوك ومخافة الله.

والأمل والمأمول ارتقاء هما المبدأ الذي فيه تُتّبع أساليب الاحترام والتقدير والاعتبار والتّفهم، وهو الذي به يتمّ الإنجاز أو الإنتاج دون أن يسود استغلال للجهد الذي به أنجز العمل أو أنتج.

ولأنّ الأمل والمأمول ارتقاء هما المبدأ الذي ينبغي أن يُتّبع، أو المنهج الذي يجب أن يؤخذ به؛ لذا فهما مكمن القيم الحميدة التي تحوّل العاملين من خانة المستهلكين إلى خانة المنتجين والمبدعين ومتحدّي الصّعاب.

إذن: الأمل والمأمول ارتقاء يستوجبان عملًا وجهدًا يبذل مع خالص النيّة، أي: لا أمل، ولا مأمول، ولا عمل، ولا إنتاج إلّا والجهد يبذل، والجهد هنا قد يكون فكريًّا، وقد يكون عضليًّا، وقد يكون فنيًّا ولوجستيًّا (خبرة ومهارة)، وهذه من مجوِّدات العمل ارتقاء؛ فلا ينبغي لنا الإغفال عنها، وعن أهميّتها وعن أدوار أصحابها. أي: يجب أن تقدّر تقديرًا عاليًا من حيث الحوافز والدّوافع، وكلّ ما من شأنه أن يشجّع على المزيد، أو يشجّع آخرين ليلتحقوا بخانة الآملين.

ومن ثمّ فالأمل والمأمول ارتقاء يستوجبان دراية ومعرفة واعية، أي: المعرفة بما يجب ليتّبع، وما لا يجب ليجنّب أو يبتعد عنه، مع معرفة وافية بقوانين وتشريعات العمل والمهنة والوظيفة، وحمْل المسؤوليَّة، حتى وإن كانت عبئًا جسيمًا.

وعليه:

. الأمل والمأمول ارتقاء لا يكونان إلّا عن وعي.

. الأمل والمأمول ارتقاء لا يكونان إلّا والعمل جودة لا تفارقه.

. الأمل والمأمول ارتقاء يحقّقان الرّفعة الذّوقيَّة.

. الأمل والمأمول ارتقاء يُحدثان النُّقلة إلى الأجود والأنفع والأفيد.

. الأمل والمأمول ارتقاء احترام إنساني.

. الأمل والمأمول ارتقاء حُسن تدبّر ينبغي أن يقدّر.

. الأمل والمأمول ارتقاء لا يكونا إلّا نتاج تفكّر فيما يجب، وأدائه وفقًا لما يجب.

. الأمل والمأمول ارتقاء تجاوز للكسل والاتكاليَّة والطّمع.

. الأمل والمأمول ارتقاء تحدّي صعاب.

. الأمل والمأمول ارتقاء تجاوز للمألوف المكلف.

. الأمل والمأمول ارتقاء صنع مستوى قيمي رفيع.

. الأمل والمأمول ارتقاء انفتاح موضوعي، واستيعاب للأفضل والأجود.

ولذا فالأمل والمأمول ارتقاء فيهما رفعة شأن وتقدّم تجاه ما هو أفضل وأجود وأنفع، ولكنّه لا يكون إلّا ببذل الجهد وعن دراية، مع سابق تخطيط وفقًا للإمكانات الممكنة، ومن ثمّ فلا إمكانيَّة للتقدّم ما لم تتوافر معطياته

من بحث علمي، وأخذ بالقيم الحميدة، والفضائل الخيّرة، مع طموح وغايات من ورائها نيل المأمولات العظيمة.

فالكلمةُ الأمل مهما عظمت إن لم تتجسّد في سلوكٍ يدفع إلى العمل المنتج تظلّ كلمة في حاجة للحياة، ولا حياة لها إلّا العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنّه العمل ارتقاء (بناءً وإصلاحًا وإعمارًا مع ارتقاء الأخلاق قمّة)، والعمل ارتقاء هو إنشاء الشيء من الشيء، كما أنشأ نوح عليه السّلام سفينة النّجاة من جذوع الشّجر إبداعًا، والفضائل والقيم من ورائها إنقاذًا.

ولأنَّ الأمم والشّعوب التي تقدّمت لم تتقدّم إلّا بالعمل؛ فَلِمَ لا يُقدِم المتأخّرون عنهم على العمل الممكّن من طي الهوة بينهم وبين المتقدِّمين الذين ارتقوا علما وتقنية وحُسن إدارة؟

ولأنَّ المأمول ارتقاء لا يكون إلّا عملًا؛ فينبغي لمن يرغب ارتقاء أن يُقدِم على العمل النّافع، وينبغي أن يجوِّد منتجاته؛ لتكون منافسة لمنتجات الغير؛ ذلك لأنَّ المنتجات غير المنافسة لن تجد لها مكانا في أسواق المستهلكين.

وهذا يعني: إن لم تُقدِم الشّعوب وبكلّ طاقاتها على العمل المنتج والمبدع فستظل متخلّفة وتابعة لمن يمتلك القوّة المنتجة، ويسيطر على السّوق، وقد تصبح مدانة بما لم تستطع تسديده، وهنا ستجد نفسها أمام خيارات قد لا تكون محمودة، ويومها لن ينفع النّادمين ندمٌ.

فالأمل ارتقاء يجعل المكانة لمن لم تكن لهم مكانة؛ فمن رغب مكانة ويأمل تبوءها فعليه بالعمل المنتج، ويحرّض من تربطهم به علاقة على العمل؛ لتكون المكانة فردية وجماعية؛ فالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام جميعهم يعملون ويحرّضون النّاس على العمل، ويحبّون من يعمل من أجله، وأجل من تربطه بهم علاقات: {وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[28].

فهكذا هم الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام أرسلوا للنّاس من أجل الهداية والعمل ارتقاء؛ فكانت القيم الحميدة والفضائل الخيّرة جنبا إلى جنب مع الإصلاح والبناء والإعمار ارتقاء عبر التّاريخ، وكانت الآمال لا تفارق عقول النّاس؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق في الجنّة رأى الارتقاء بأمّ عينه، بل عاش الارتقاء حياة نعيم، ولكن بأسباب المخالفة والمعصية ارتكب خطأ فأخرج به هبوطا من الجنّة إلى الحياة الدّنيا، والتي من بعدها أصبح واضعا نصب عينيه أمل العودة إلى تلك الجنّة التي ضاعت من بين يديه وهو يتحسّر، بما أقدم عليه شهوة وإرادة، حتى وإن كان بأسباب الإغواء، ولكن بعد أن استغفر ربّه، ظل يعمل من أجل العودة إلى ذلك العيش الرّغد الذي حُرم منه بما ارتكبه من فعل منهي عنه، ومع ذلك ساد الصّراع بين النّاس إلى يومنا هذا (بين من صدّق الرّسل ومن كذّبهم)؛ فمن

[28] التوبة 105.

صدّق الرّسل يأمل كما أمِلَ الإنسان الأوّل الارتقاء إلى الجنّة التي عاشها حياة فردوس، ومن لم يصدّق؛ فلا يرى جنّة، وهنا تكمن العلّة.

وهكذا فالإنسان لم يقف عند ما يأمله، بل تجاوزه بالعمل حتى صعد إلى القمر، الذي كان يعتقد أنّه الجنّة، ثم تجاوز القمر كونه لم يكن كذلك، فغزى الفضاء اكتشافًا، وهو في سعيه لم ييأس ارتقاء من بلوغ ما هو أعظم، ولا غاية له من وراء ذلك إلّا بلوغ الجنّة، إنّها رسالة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام؛ فمن أخذ بها ارتقاء أخذ بما يجب الأخذ به، ومن لم يأخذ بها؛ فلن يبلغ التقدّم والارتقاء المحقّق لإشباع الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة وبناء الحضارة التي ترتقي بصُنّاعها إلى صناعة المزيد.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء خَلقا، لكنّه لم يحافظ على ارتقائه؛ فأُهبط به من علوٍّ إلى دنيا، ومع ذلك عيناه لم تفارق السّماء، بل ظلّت تبصر هناك بأمل العودة، وهذا الأمر هو الذي حفّزه على العمل ودفعه إليه ارتقاء.

فالإنسان لو لم يكن مؤهلا للارتقاء، ما فكّر وتدبّر حتّى تمكّن من اقتناص الفكرة التي مكنته من غزو الفضاء وهو يأمل في المزيد ارتقاء، ولأنّ حاجات الإنسان متنوّعة ومتطوّرة؛ فهي إن لم تواكب من قِبله بالعمل المتطوّر تصبح ضاغطة عليه ألما شديدا؛ فعليه بالعمل وتحدّي الصّعاب، ولا يخشى شيئا سوى الحقّ الذي يمكّنه من التقدّم والنّهوض وتحقيق الرّفعة والمكانة قمّة.

ولهذا فما بلغه الإنسان من ارتقاء علمي وثقافي وحضاري يؤسّس قاعدة عريضة للمزيد المعرفي الممكّن من الإصلاح والبناء وقبول التحدّي من أجل الأفضل والأفيد والأنفع والأرقى، ومن أراد أن يرتقي إلى المأمولات العظام فلا إمكانيَّة له إلّا بذل الجهد والعمل الذي له من الأهداف ما له وله من الأغراض ما له، ومن وراء كلّ ذلك غايات تُبلغ، ومأمولات يتمّ نيلها أو الفوز بها؛ ولهذا فالارتقاء عملًا يحقّق:

. الرّفعة.

. تبوء المكانة.

. القدوة الحسنة.

. الاعتماد على الذّات.

. بلوغ الغايات.

. نيل المأمولات.

وعليه: فالأمل ارتقاء لا سقف له؛ فلا تجعل من مستوى الجودة الذي بلغته مظلة لتجلس تحت ظلّها وكأنّها الغاية، بل عليك أن تعرف أنّ الجودة درجات سُلم يتمّ الصّعود عليها، ولا يتمّ الصعود إليها؛ ذلك لأنّ الوسيلة ليست الغاية ولا المأمول، ولأنّ السّلم وسيلة فلا تقف عنده وكأنّه المهم الذي لا شيء مهم من بعده.

فعليك بالعمل؛ فالعمل الصّالح كما يرضي القائمين به جهدا مبذولا يرضي الله، ولكلّ جزاؤه، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[29]، أي لكلٍّ حسابه؛ فللعمل الرّاقي حسابه، وللعمل الواطي حسابه، ولا يظلم ربُّكَ أحدًا.

الأمل من أجل نيل المأمول:

الأمل ليس غاية في ذاته، بل الغاية من ورائه بلوغ المأمول ثم نيله، والآمال هي المرجوة بلوغًا ثم نيلًا، سواء أكانت بحثًا علميًّا، أم عملًا أم أيّ مقصد من المقاصد المعلومة؛ ولهذا تحدد لها الأهداف؛ لتكون مرشدة لمراميها.

فالآمال تحدّد لها الأهداف وفق الإمكانات المتاحة من قبل الذين يأملون إنجاز ما يمكن إنجازه علمًا، أو معرفةً، أو بناءً، وإعمارًا، وصناعة مستقبل، وهي لا تكون محدّدة إلّا بعد وضوح رؤية تجاه ما يجب الإقدام عليه، ومن ثمّ فالصّراع بين بني آدم اختلافا وخلافا لن ينتهي بين البناة أملًا، والهادمين له انحدارًا، ما لم يضع الجميع نصب أعينهم أهدافا مشتركة (قابلة للإنجاز)، من ورائها أغراض قابلة للتحقّق، وغايات يجب أن تُبلغ ارتقاء، وآمال رفيعة يتم نيلها.

فالاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا

[29] الزلزلة 7، 8.

ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين، ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقا لأملٍ مشترك يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلا وارتقاء.

ومن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة حيث لا أمل، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظّروف ارتقاء، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة فالأمل الرّفيع يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي ارتقاء تذكّر؛ فاتّعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافا من ورائها أغراضٌ، والغاية من ورائها القمّة مأمولة.

وعليه:

إنّ تحديد الآمال مثل تحديد الأهداف يُمكّن من إنجازها بنتائج وحلول موضوعية، ويوجّه الباحثين إلى ما يمكن إنجازه دون إضاعة للوقت أو الجهد، ودون أيّ إهدار للإمكانات، وهي تلفت الباحثين والعاملين

على إنجازها إلى أهمية الموضوع أو القضية التي يأملونها ويضحّون من أجلها. ولهذا:

وضوح الأمل يؤدّي إلى وضوح الرّؤية.

. غموض الأمل لا يؤدّي إلى بلوغ المرضي.

. تحديد الأمل يمكّن من التدبّر.

. ولّد في نفسك وعقلك أملا من ورائه مأمولات.

. تبيّن أملك قبل الإقدام على العمل.

. ثق أنّ الآمال تُنال؛ فلا تتأخّر عن العمل.

وإذا أراد بنو آدم عدم الجلوس على أرصفة البطالة والمتسوّلين فعليهم بصناعة الأمل وتوليد الآمال منه، ثمّ وجب عليهم حُسن التدبّر مع أخذ الحيطة والحذر؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم، وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة والارتقاء قمّة، ومن ثمّ نيل المأمول.

وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرًا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من صنع الأمل والمشاركة في العمل المنتج، وكذلك لا ينبغي لبني آدم أن يضعوا أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ

الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، وتحقيق الأغراض الرّفيعة، وبلوغ الغايات العظيمة، ونيل المأمولات قمّة.

ولهذا فالآمال ليست أمنيات، بل هي المرشد الحقيقي للباحثين في ميادين البحث العلمي، والسّاعين إلى الارتقاء مهنة وعلما ومعرفة وإنتاجا وحرفة، ولهذا فلا يمكن أن تنجز المهام والأعمال والخطط والاستراتيجيَّات على أي مستوى من المستويات الفرديَّة والجماعيَّة والمجتمعيَّة وأيّ مستوى من المستويات السياسيَّة والاقتصاديَّة والمعرفيَّة ما لم تحدد لذلك آمال عريضة تحتوي أهدافًا قابلة للإنجاز، ومأمولات قابلة لأن تصبح شواهد.

وعندما تُصنع الآمال، وتحدّد الأهداف، تصبح رؤية الآملين واضحة المرامي والأغراض، وفي المقابل من لا يتمكّن من صنع آماله وتحديد أهدافه أو رؤيته أو سياسته؛ فلن يستطيع أن ينجز شيئا يمكن أن يكون على الأهمية المأمولة.

وعليه:

. الآمال العظيمة ليست أمنيات الكُسالى؛ فهي تحمل في أحشائها حيويّة تدفع تجاه نيل المأمولات الراقية.

. الآمال العريضة لا تُصنع إلّا من قِبل الجادّين.

. الآمال لا يقودها إلّا آملٌ، وإن استعان بمن استعان.

. الآمال تهدي الآملين إلى مأمولاتهم وترشدهم إليها مثلما تهدي المنارات سفن المبحرين.

. الآمال لا تتولّد في العقول إلّا من قِبل القادرين على نيلها أو الفوز بها.

. يعد تحديد الآمال خرقا لما كان يظن أنَّه صعب المنال.

. يعد إنجاز أوّل أمل أكبر لبنة لبناء المستقبل المأمول.

. تحديد الآمال لم يكن غاية في ذاته، بل الغاية طي الهوة بين الآمل والمأمول؛ لأنّ بلوغ الغاية وطي الهوة يفتح آفاقا جديدة لتوليد آمال جديدة لم تتولّد إلّا من بعد مأمول تمّ نيله.

ومع أنَّ الصّعوبة تكون في البداية، فإنَّ في النّهاية لا تعد استحالة؛ فالتعلّم بداية تواجهه المصاعب كما تواجه عملية التذكّر والتدبّر والتفكّر والإبداع، ولكن نهاية الأهداف تنجز، والأغراض تتحقّق، والغايات تُبلغ، والآمال تُنال.

ولأجل ذلك: ينبغي أن نميّز بين تحديد الأهداف وإنجازها، والأغراض وتحقيقها، والغايات وبلوغها، والمأمولات ونيها؛ فالأهداف تحدّد لتنجز أوّلا بأوّل، وهي في دائرة الممكن المتوقّع لا تنتهي إلّا بانتهاء من يعمل عليها؛ ولهذا فلا توقّف بعد إنجاز الأهداف، بل ينبغي تحديد أهداف أهم

من التي أنجزت، ثمّ من بعدها أهداف أعظم، وهذه من سُبل تحقيق الارتقاء غاية.

ولأنَّها أهداف تحقيق الارتقاء؛ فلا تكون ذات أهمية إلّا ومن ورائها أغراض، ثمّ من وراء الأغراض غايات عظيمة، ومن ورائها مأمولات أعظم؛ ولهذا لا ينبغي أن تكون أهداف الآمل غاية في ذاتها، بل يجب أن تكون الغايات من ورائها ما يحقق الرفعة (نيل المأمول ارتقاء).

ولهذا فإنَّ قاعدة صنع الآمال وتوليدها مؤسّسة على وجوب نيل المأمولات، وإلّا لا داعي لصنعها وتوليدها؛ فكلّما نال بنو آدم مأمولا ينبغي لهم أن يكون من ورائه مأمول أهم، ثمّ من ورائه مأمول أكثر أهمية، ووراء كلّ مأمول غرض، من ورائه غرض أعظم، وهكذا هي سُبل تحقيق الارتقاء غاية، ومن ورائها غاية مأمولة.

وفي دائرة الممكن غير المتوقّع، بعض النَّاس يصنع له أملا، ولكنّه لا يعمل على نيله، وكأنّ صنع الأمل هو المأمول في ذاته؛ وكذلك هناك من يصنع له أملا ويعمل على إنجازه دون أن تكون له آمال عريضة من بعده، وهنا يكمن الفشل أمام تطوّر الحاجات، وتنوّع مشبعاتها؛ ولهذا فالآمال ارتقاء ينبغي لها أن يكون من ورائها أغراض، تكمن من ورائها غايات عظيمة.

إذن: ينبغي لبني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ أمل غرضا، من ورائه أغراضٌ تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة

الشخصيَّة قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة. ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا؛ فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وألم، وهنا يكمن الانحدار علّة.

وعليه:

. إنّ تحديد الآمال ليس غاية في ذاته، بل الغاية من ورائه نيل المأمول.

. من يحدّد آماله غاية ليس له من نتيجة إلّا الفشل.

. توليد الآمال يولّد آمالا جديدة في عقول الجادّين.

. لا يولّد الأمل من الأمل إلّا ومن ورائه غرض، ومن وراء الغرض غاية من ورائها مأمول؛ ولهذا فكلّ غرض يتحقّق من ورائه غاية، وكلّ غاية تُبلغ من ورائها مأمولٌ يفتح آفاقا أمام مأمول أعظم.

. تصنع الآمال وفقا لمتغيرات بيّنة، ولكن الآمل لا يقتصر عليها؛ فهناك من الآمال ما يصنع في دائرة غير المتوقّع بما يمكّن من إنجاز المفاجئ.

ولذا؛ فكلّما تمّ نيل أمل، من ورائه غرض، من ورائه غاية، يتمّ اكتشاف آمالٍ من ورائها أغراض تحقّق غايات أكثر أهمية؛ فالحياة الدّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاء. أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاء وتحقّقت له الرّغبة المرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا، حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا أنَّهم سيبلغون السّماء ارتقاء كلّما عملوا وفقا لآمال يتم نيلها، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب؛ فعليهم بوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيدهم مع أيدي الصّاعدين أملًا وارتقاءً.

ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة، ونيل المأمول رفعة؛ فلا بدّ من سيادة الفضائل الخيّرة، والقيم الحميدة بين بني آدم، تقبّلًا، واحترامًا، وتقديرًا، واعتبارًا، واستيعابًا، وتفهّمًا، وتدبّرًا، مع مراعاة البدء مع النّاس من حيث هم، من أجل ما يجب أن يكونوا عليه رفعة.

فالارتقاء معمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة)، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، وأمل من ورائه آمال، ولكن في المقابل هناك من يهدّم المعمار رأسًا على عقبٍ، وهناك من يهدّمه لبنة بعد لبنة؛ فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيًّا والهادمين له انحدارًا، ما لم يضع الجميع نصب أعينهم آمالًا قابلة لأن تنال.

صُنع الأمل نُقلة ورفعة:

القول بصنع الأمل نُقلة كمن يقول لك لا نُقلة بدون صناعة أمل يسبقها؛ ولذا توجد علاقة بين مفهوم النُّقلة ومفهوم الرّفعة؛ كونهما نتاج صناعة الأمل؛ فالنُّقلة (امتداد من إلى) أي: من حالة أقل إلى حالة أرفع؛

أمَّا الرّفعة فهي بلوغ مستوى الرُّقي، سواء أكان علميًّا، أم ثقافيًّا، أم اقتصاديًّا، أم ماليًّا، أم سياسيًّا، أم حضاريًّا بشكلٍ عامٍّ.

ولهذا فالرِّفعة ارتقاء منزلة، وتبوءُ مكانة، وامتلاك حُجّة، وهي الحيويّة التي تجعل من أصحابها قدوة حسنة قولًا وفعلًا وعملًا وسلوكًا، وهنا الرِّفعة تعالٍ عمّا يشين.

ومن ثمَّ فهي حُسن إدارة ما يُساس، والارتقاء به عدالة مع وافر الشفافيَّة في ممارسة الحريَّة بأسلوب ديمقراطي، وتغلُّبٍ على كل ما يؤدّي إلى ألمٍ، أو يعيق بلوغ المأمول ونيله.

والرِّفعة قيمةٌ عاليةٌ تضع من بلغها مكانًا مرموقًا؛ تكون مسافته بعيدة جدًّا عن تلك النَّقطة الدونيَّة، ما يجعل أقوال وأفعال المرموقين بها على قمم الأخلاق والعلم والإنتاج؛ حتى يتّصفوا بها قدوة ورفعة وارتقاء، وبها ترتفع الدِّول سياسة حضارية؛ إذ العلم والعمل المنتج وقيمة الإنسان وتنميته ركائزها.

ومن هنا فإنَّ الرفعة لا تأتي إلّا من الفضائل الخيّرة والآراء صانعة المستقبل ومحدثة النُّقلة، التي تستمدّ علمًا ومعرفةً من كلّ مفيدٍ ونافعٍ، وبما يجسِّد قيمة الإنسان، ويمكّنه من نيل الاعتراف، والتقدير، والاعتبار، وغرس الثقة، ويحفّزه على بلوغ المأمول ونيله.

فالإنسانُ أساسُ خلقهِ الرّفعةُ: (في أحسن تقويم)، وغايته: الارتقاء خُلُقا إلى ما يجب؛ ومع أنّ الأخلاق بيد النّاس، ولكن بعضهم يخسرها بلا ثمن.

ولذلك فالإنسان الأوَّل (آدم) قد خُلق من تراب الجنَّة؛ وظل على خَلقه سلالة بشريّة تمتدّ بين طينٍ لازبٍ وماءٍ دافقٍ، ولا انحدار عن الخَلق المقوّم ولا تطوّر من بعده؛ فالإنسان هو الإنسان، ولكن الانحدار والتطوّر في دائرة الممكن هو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فآدم وزوجه خُلقا في الجنَّة من تراب الجنَّة، ومع ذلك تعرّضا لإغواءٍ جعلهما على حالة من الانحدار عن تلك الرّفعة التي خلقا عليها؛ إذ لم يلتزما بالأمر النّاهي عن الأكل من تلك الشّجرة: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[30].

ولهذا فالبقاء في الجنَّة بقاء رفعة شأن، فمن لا يكون عليها لا يكون فيها؛ فحتى آدم عليه الصّلاة والسّلام الذي خُلق في الجنَّة خَلقا، أُهبط به على الأرض الهابطة إلى الحياة الدّنيا؛ وذلك بأسباب معصيته وميله لوسوسة من أغواه شهوة، وهنا فالسِّياسة رفعة لا تكون كذلك إلّا إذا ارتبطت بالقيم الحميدة والمبادئ الخيرة، والآراء البناءة، وفي المقابل إذا ارتبطت بغيرها شهوة فليس لها إلّا الانحدار والدونية.

[30] البقرة: 36.

ولأنَّ هبوط آدم عليه السّلام كان نتاج الانفتاق العظيم بعلل الشهوة؛ فهو خروج من الجنَّة، حيث ظلّت الجنَّة في العلو رُقيّا ورفعة، وظلّ آدم ومن معه من المخالفين والعصاة: (الإنس والجن)، يحيون الحياة الدّنيا على الأرض الدّنيا.

أمَّا بعد الهبوط فَالفتن لم تنته، بل تكاثرت مع التزاوج والتكاثر؛ فالصّدامات والخصومات بين أبالسة وشياطين الإنس والجنّ استمرّت بلا انقطاع، ومع ذلك؛ فإنَّ بقاءها في الحياة الدّنيا هو بغاية الاتعاظ وأخذ العبر من ذلك الإغواء الذي كان سببًا في هبوط المخالفين من الحياة الرفيعة الرّاقية إلى الحياة الهابطة.

ولأنَّ مخالفة آدم وزوجه لِمَا نهى الخالق عنه (الأكل من تلك الشّجرة قد أخرجهما من الجنَّة)، فظلّ هذا الدّرس شاهدا على ما يمنع بني آدم من أن يدخلوا الجنَّة. أي: بما أنّ تلك المخالفة قد أخرجت آدم وزوجه من الجنَّة، إذن فكيف لبني آدم دخولها؟

أقول؛ قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[31]، ولأنَّ أمر الهبوط كان أمرًا حاسمًا لمخالفة جرت في الجنَّة؛ إذن: ألا يعدُّ أمر الهابطين أمرًا حاسمًا في عدم الدّخول إليها؟ وهل من مخرج من هذه الأزمة، ومعظم الخَلق لهم من المخالفات ما لهم على الانحدار والدّونيَّة؟

[31] الأنعام 160.

أقول: قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}[32].

ولأنَّ الدّين مصدر الفضائل والقيم الرّفيعة؛ فلا إكراه فيه، وهذه عين الأخلاق؛ فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر؛ ولذا وجب قول الحقّ وترك النّاس أحرارًا يختارون ما يشاؤون إرادة، ولكن إن حدث الانحراف فيجب الإصلاح الذي يستوجب البدء مع المنحرفين من حيث هم (جهلا أو تعلّمًا)؛ وذلك من أجل بلوغ الإصلاح، أو بلوغ الحلّ ارتقاء.

ولأنَّ الرّفعة ارتقاء هي أساس المعاملة الحسنة؛ فالأخذ بها لا شكّ يجعل الإنسان على المحبّة بدلا من أن يكون على الإكراه الذي لا يترك إلّا ألما، {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[33]، أي: فلا داعي أن يضيق صدرك يا نبي الله وأنت تعلم أنّ مشيئة الخالق هي الفاعلة، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}[34]؛ لذلك كان محمَّدٌ داعيًا إلى سبيل الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا إكراه، وهذه عين الأخلاق رفعة وارتقاء؛ فالأخلاق تُعدّ قيمة ارتقاء في ذاتها، وهي عندما تتجسّد في سلوك السّاسة يصبح سلوكها قمّة ورفعة.

---

[32] الزمر 53.

[33] يونس 99.

[34] يونس 99.

ولهذا عندما تصبح السِّياسة رفعة حجّة، ورفعة قول، ورفعة سلوك، ورفعة عمل، وفعل يظل الاقتداء بأصحابها اتباعًا لِسُبل بيّنة، ذات معانٍ ودلالات تطمئن الآخذين بها، إذا ما اقتدوا بما يرشد إليها وجوبا؛ ذلك لأنَّ الاقتداء ارتقاء لا يؤدّي إلّا لموجب، وفي المقابل الاقتداء انحدارا لا يؤدّي إلّا لسالبٍ، ومن هنا، يتولّد الحوار بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الانحدار؛ فالذي يؤدّي إلى الارتقاء لا غاية من ورائه إلّا اتباع الحقّ، والاقتداء به، وبمن يتّخذه سلوكا وعملا مفعولا، أي: إنّه الاقتداء الذي لا يخضع للمساومات ووهن الشهوة؛ ذلك لأنَّ ما يخضع لذلك بيعا وشراء يُدخِل أصحابه في خانة التبعيّة والانقياد وفقا للثّمن المباع به أو الثّمن المشترى به؛ فالاقتداء رفعة يستوجب اتباع الحقّ الذي لا يضع مُتّبعوه في خانة الدّونية: {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ}[35]، بمعنى: اتبعوا من جاء من أجلكم دون أن يسألكم مقابلا، أي: اقتدوا بمن يراكم قيمة في ذاتكم لا من لا يراكم إلّا بما تقدّموه بيعا أو شراء.

ولذلك فالاقتداء الحسن قوّة لا يكون إلّا من قِبل الذين لهم من العزيمة ما لهم، ولهم من الآمال الحسنة ما لهم، وفي المقابل لا يؤدّي إلى الانحدار إلّا الضّعف الذي له من القيم السّلبية ما له؛ كالشّهوة، والشّخصانيَّة، والطّمع، والاتّكاليَّة، والنّفاق، والجبن، والخيانة، ومن ثمّ؛ فالاقتداء لا يكون اتباعًا إلّا عن رغبة وإرادة.

[35] يس: 21.

ولهذا؛ فالاقتداء اتباعًا لا يكون إلّا بتوافر الحُجّة والسِّياسة النافعة المحقّة للحقّ، والمدحضة للباطل، والممكنة من المعرفة الواعية، وهو لم يكن تقليدا مورّثا بغير حُجّة.

ذلك لأنَّ التقليد المورّث في بعض الأحيان لا يزيد أصحابه إلّا دونيةً وانحدارًا: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ}[36] ومع ذلك فالسِّياسة رفعة ترى أنَّ الذين لا حجّة لهم، هم الذين يجب حوارهم وجدالهم؛ حتى يتحرّروا من قيود التقليد الحائل بينهم وبين الارتقاء؛ ولذلك فاتباع العقل اتباع قدوة وحُجّة، وليس اتباع موروث وأشخاص؛ فالموروث الذي لا يُمكّن من أخذ المواعظ والعبر من التّاريخ، هو مورث مُفلس حيث لا قيمة، وهذا الأمر يجعل البعض كمن يلكّ العلكة ثم يخرجها من فمه ليتركها لمن بعده لعلّه يلكّها، وهذا ما يؤدّي إليه التقليد المفسد للقيم، وإن لم يدرك هؤلاء مخاطرَ ومفاسد التقليد عن غير دراية، سيجدون أنفسهم يعيشون عصرًا قد تجاوزته العصور: {وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[37].

فالتقليد الذي ينبغي لك الأخذ به، هو الممكّن من تجاوز ما يؤلم، أو ما ينذر بألم، وهنا وجب التمييز بين ما يمكن أن يكون تقليدا لإظهار القدوة الحسنة، وما هو أهواء بمبررات مجهولة: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[38]؛ فينبغي أن يكون التقليد والاتباع للفضائل الخيّرة والقيم

---

[36] الزخرف 22.

[37] الأعراف 142.

[38] الجاثية 18.

الحميدة، والنّاس القدوة، كما كان سيدنا إبراهيم عليه السَّلام الذي وُصِفت قدوته بالأمّة: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}[39]، أي: فمن أراد أن يكون قدوة حسنة؛ فعليه أن يستوعب القيم الحميدة للأمّة كلّها، ثم يجسّدها في سلوكه كما جسّدها إبراهيم عليه السّلام؛ لتكون من بعده بين أيدي النّاس رفعة تجمع الشّمل على الكلمة السّواء.

فالاقتداء الذي ينبغي له أن يتّبع هو الذي أساسه الحُجّة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وليس تقليدا للأفراد في ذواتهم؛ ذلك لأنَّ الفضائل والقيم تبقى، أمّا النّاس فزائلون: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مّا تَذَكَّرُونَ}[40]، أي: اتبعوا ما يبقيكم على المكانة والرِّفعة، ولا تتبعوا الزائلين، وإن أردتم أن تكونوا قدوة حسنة وخلائف في الأرض فخذوا ما أمر الله به ارتقاء؛ لتجعلوه تقليدا لمن خَلفَكم، وهو التقليد الذي يمكّن مَن خلفكم مِن تنظيم حياتهم على المحبّة والوفاق، ويمكّنهم من العمل المنتج بلا مظالم.

ومع أنَّ الاقتداء بالفضائل لا يكون إلّا في مرضات الله، ولكن حتى وإن أخذ الإنسان بكلّ ما قاله الله؛ فلا يمكن له أن يكون الله، بل يكون قدوة حسنة في مرضاة الله، وهو الذي خُلق الإنسان من أجله، وإلّا هل هناك من يظن أنّ الخالق قد خَلق العباد لمعصيته؟

---

[39] النحل 120.

[40] الأعراف: 3.

وكذلك، إن أخذ الإنسان بكلّ ما جاءت به الرّسُل؛ فلا إمكانية لأن يصبح أحد رسولا، ولكن تقليدا بإمكانه أن يكون قدوة حسنة: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[41].

ولهذا فالتقليد الحسن يجعل من المقلِّد قدوة حسنة، وفي المقابل التقليد السّيء لا يجعل من صاحبه إلّا سيئا، ومهما بلغ التابعون من التقليد؛ فلن يكونوا مبدعين إن اقتصر تفكيرهم على التقليد فقط؛ ولذا فالقدوة الحسنة يمكن أن تكون من الذين قضوا نحبهم كما هو حال الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}[42]، وكما هو حال رجالات التاريخ، مثل: الشيخ عمر المختار، والشيخ عبد القادر الجزائري وغيرهم كثير؛ فهؤلاء ومن كان مثلهم مع أنّهم ليسوا على قيد الحياة، ولكنّهم خير قدوة، ولكلّ رسالته التي بقيت حُجّة بين أيدي المقتدين به رفعة.

أمَّا القدوة على قيد الحياة فإلى جانب كونه قدوة فضائل وقيم، ينبغي أن يُضِيف إلى ما جعله قدوة، ما يجعله قدوة أكثر ارتقاء، وهكذا يصبح الاقتداء من حسنٍ إلى ما هو أحسن من أجل بلوغ القمّة قيما وفضائل.

ومع أنَّ التقليد لا يكون إلّا لسابق، فإنَّه من أجل الارتقاء دائمًا ما يتجدد التقليد الحسن، والتقليد ارتقاء دائمًا للأحسن حتى وإن جاء ممّن

---

[41] الأحزاب: 21.

[42] الممتحنة: 4.

هو أقل مكانة، كما هو حال ابن آدم الذي كان الغراب أكثر منه معرفة بما يُمكن أن يُقلّد؛ فابن آدم الذي قَتل أخاه، ولم يكن يعرف كيف يواري سوءته، وقف عاجزا في حيرة من أمره إلى أن بعث الله غرابا ليريه كيف يواري سوءة أخيه: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[43].

إذن: التقليد ارتقاء لا يكون إلّا بالمعرفة المرشدة لما هو أفضل وأنفع، وممّن تكون؛ فالأشخاص لو لم تكن لديهم المعرفة الكافية والواعية فلا إمكانية لأخذهم قدوة، وعندما يفتقر الإنسان إلى المعرفة الحسنة فلا إمكانية لأن يكون قدوة، ومن هنا؛ فمن تكون له المعرفة ارتقاء يكون قدوة حسنة[44].

ومن ثمّ فالأخذ بالقيم والفضائل تقليدًا يخلق القدوة الحسنة التي تأخذ بالاقتداء والاعتزاز الذي يجعل للإنسان قيمة؛ فالأبناء أوّل من يقتدون به قدوة آباؤهم إن كانوا قدوة، ومدرسوهم إن كانوا قدوة، ثمّ ينضجون بحثا عن مكانة تليق بهم وفقا لما يأملونه ارتقاء؛ ولذلك فالقدوة الحسنة تترك أثرا طيبا لدى الأجيال، في مقابل ما تتركه القدوة السيّئة من أثرٍ غير حميد، فمن يقتدي بالقول والسّلوك والفعل والعمل الطيّب يجد نفسه مقتديا بما

---

[43] المائدة: 31.

[44] عقيل حسين عقيل، من معجزات الكون، ص262 . 266.

هو مرغوب فيه قيمة وفضيلة، ومن يقتدي بغير ذلك سيجد نفسه على غير قيم حميدة ولا فضائل خيّرة؛ فالقدوة الحسنة تبقى قدوة حتى وإنْ انتهى أصحابها؛ فالأنبياء كونهم قدوة حسنة هم أحياء (حجّة وعقيدة، وفعلا وعملا وسلوكا)، وهكذا رجالات التاريخ وصنّاعه قدوة.

وعليه:

فالمربّي يكون قدوة حسنة، متى ما نقل للنشء تجاربه الموجبة، وخبراته النّافعة، وقيم المهنة الرّاقية، وفضائل المجتمع الخيّرة، وفي المقابل قد يكون قدوة سالبة إذا لم يتطابق قوله وسلوكه وفعله وعمله مع أخلاق المهنة، وقيم المجتمع، وما ترتضيه الإنسانية والسياسات النافعة.

وهكذا يكون المعلّم قدوة حسنة متى ما نجح في تَحَمُّل المعلومة المتجدّدة ارتقاء، وكذلك الأم قدوة حسنة موجبة متى ما نجحت ارتقاء في غرس مشاعر الأمومة في أبنائها، وفي المقابل تكون قدوة سيئة متى ما انحرفت منهجا وخُلقا وسلوكا، وكذلك الأب يظل قدوة حسنة متى ما غرس عاطفة الأبوة في أبنائه جنبا إلى جنب مع قيم المجتمع المفضّلة، ويكون قدوة سلبية متى ما انحرف عمّا تفضّله الإنسانية من قيم.

وبما أنَّ القدوة الحسنة حلقة وصلٍ تربط الأجداد بالأحفاد، إذن: فتواصل الأجيال يتطلّب القدوة، وتواصل الحاضر مع الماضي يتطلّب

الذّاكرة، وهكذا تواصل الحاضر مع المستقبل يتطلّب الأمل الذي تحفّزه القدوة الحسنة لما يجب أن يكون عليه ارتقاء ورفعة[45].

وعليه فالسِّياسة رفعة لا تكون إلّا والمأمول نافع ومفيد، وأنّ الآمل لا يسعى إلّا لما يفيد، ومن هنا يوصف المأمول بالقمّة؛ فيصبح الارتقاء رفعة عن كلّ ما يؤدّي بأصحابه إلى السُّفلية والدّونية؛ فيؤخذ بالقيم الحميدة والفضائل الخيرة مع وافر التقدير والاحترام للأفراد والجماعات والمجتمعات والحضارات والثقافات والأديان، كما أنّه يمكّن من التوافق والاندماج الذي فيه الإنسان قيمة في ذاته؛ فلا يهان، ولا يقلل من شأنه، ولا يحرم من ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وتُحْمَل مسئولياته. والرِّفعة هنا قد تكون بأسباب العلم والثقافة وحسن المعرفة، وقد تكون نتاج التربية وتهذيب السلوك ومخافة الله.

والسِّياسة رفعة بها تُتّبع أساليب الاحترام والتقدير والاعتبار والتّفهم، وبها يتمّ الإنجاز أو الإنتاج دون أن يسود استغلال للجهد الذي به أنجز العمل أو أنتج.

ولأنّ السِّياسة رفعة هي المبدأ الذي ينبغي أن يُتّبع أو المنهج الذي يجب أن يؤخذ به؛ فهي المنقذ من الميل إلى الانحدار والسفلية، وهي مكمن القيم الحميدة التي تحوّل العاملين من خانة المستهلكين إلى خانة المنتجين والمبدعين ومتحدّي الصّعاب.

[45] عقيل حسين عقيل، منابع الأمل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 150 – 157.

إذن: السِّياسة رفعة تستوجب عملا وجهدًا يبذل مع خالص النيّة، أي: لا أمل ولا عمل ولا إنتاج إلّا والجهد يبذل، والجهد هنا قد يكون فكريًّا، وقد يكون عضليًّا، وقد يكون فنيًّا ولوجستيًّا (خبرة ومهارة) وهذه من مجوِّدات العمل ارتقاء؛ فلا ينبغي له الإغفال عنها، وعن أهميّتها وعن أدوار أصحابها، أي: يجب أن تقدّر تقديرًا عاليًا؛ من حيث الحوافز والدّوافع، وكلّ ما من شأنه أن يشجّع على المزيد أو يشجّع آخرين ليلتحقوا بخانة الآملين.

ومن ثمّ فالسِّياسة رفعة تستوجب دراية ومعرفة واعية، أي: المعرفة بما يجب ليُتَّبع، وما لا يجب ليجنّب أو يبتعد عنه، مع معرفة وافية بقوانين العمل والمهنة والوظيفة وتشريعاتها وحَمْل المسئوليَّة حتى وإن كانت عبئا جسيما مع معرفة الآخر واحترامه وتفهّم ظروفه وأحواله.

وعليه:

- الأمل والعمل ارتقاء لا يكونان إلّا عن وعي.
- الأمل ارتقاء لا يكون إلّا والعمل جودة لا تفارقه.
- الأمل ارتقاء يحقّق الرِّفعة الذّوقية.
- الأمل ارتقاء يُحدث النُّقلة إلى الأجود والأنفع والأفيد.
- الأمل ارتقاء احترام إنساني.
- العمل ارتقاءً يعدُّ حُسن تدبّر ينبغي أن يقدّر.

. الأمل ارتقاء لا يكون إلّا نتاج تفكّر فيما يجب وأداؤه وفقا لما يجب.

. الأمل ارتقاء تجاوز للكسل والاتكاليَّة والطّمع.

. الأمل ارتقاء تحدّي صعاب.

. الأمل ارتقاء تجاوز للمألوف المكلف.

. الأمل ارتقاء صنع مستوى قيمي رفيع.

. الأمل ارتقاء انفتاح موضوعي واستيعاب للأفضل والأجود.

ولذا؛ فالأمل ارتقاء، السِّياسة فيه رفعة شأن، وتقدّم تجاه ما هو أفضل وأجود وأنفع، ولكنّه لا يكون إلّا ببذل الجهد وعن دراية مع سابق تخطيط وفقا للإمكانات الممكنة، ومن ثمّ فلا إمكانية للتقدّم ما لم تتوافر معطياته من بحث علمي وأخذ بالقيم الحميدة والفضائل الخيّرة مع طموح وغايات من ورائها نيل المأمولات العظيمة رفعة.

فالكلمةُ الأمل مهما عظمت إن لم تتجسّد في سلوكٍ يدفع إلى العمل المنتج تظلّ كلمة في حاجة للحياة، ولا حياة لها إلّا العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنّه العمل رفعة وارتقاء (بناء وإصلاحا وإعمارا مع ارتقاء الأخلاق قمّة)، والعمل ارتقاء هو إنشاء الشيء من الشيء، كما أنشأ نوح عليه السّلام سفينة النّجاة من جذوع الشّجر إبداعا، والفضائل والقيم من ورائها إنقاذًا.

ولأنَّ الأمم والشّعوب التي تقدّمت لم تتقدّم إلّا بالعمل؛ فَلِمَ لا يُقدِم المتأخّرون عنهم على العمل الممكّن من طي الهوة بينهم وبين المتقدِّمين الذين ارتقوا علما وتقنية وحُسن إدارة؟

ولأنَّ الأمل ارتقاء لا يكون سياسة نافعة إلّا عملا؛ فينبغي على من يرغب ارتقاء أن يُقدِم على العمل النّافع، وينبغي له أن يجوِّد منتجاته لتكون منافسة لمنتجات الغير؛ ذلك لأنّ المنتجات غير المنافسة لن تجد لها مكانا في أسواق المستهلكين.

وهذا يعني: إنْ لم تُقدِم الشّعوب وبكلّ طاقاتها على العمل المنتج والمبدع فستظل متخلّفة وتابعة لمن يمتلك القوّة المنتجة، ويسيطر على السّوق، وقد تصبح مدانة بما لم تستطع تسديده، وهنا ستجد نفسها أمام خيارات قد لا تكون محمودة، ويومها لن ينفع النّادمين ندمٌ.

وعليه: إنَّ الرِّفعة تجعل المكانة لمن لم تكن لهم مكانة؛ فمن رغب مكانة ويأمل تبوءها فعليه بالعمل المنتج، ويحرّض من تربطهم به علاقة على العمل؛ لتكون المكانة فردية وجماعية؛ فالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام جميعهم يعملون ويحرّضون النَّاس على العمل، ويحبّون من يعمل من أجله وأجل من تربطه بهم علاقات: {وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[46].

[46] التوبة 105.

فهكذا هم الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام أرسلوا للنَّاس من أجل الهداية والعمل ارتقاء؛ فكانت القيم الحميدة والفضائل الخيّرة جنبًا إلى جنبٍ مع الإصلاح والبناء والإعمار ارتقاء عبر التّاريخ، وكانت الآمال لا تفارق عقول النّاس؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق في الجنَّة رأى الارتقاء بأمّ عينه، بل عاش الارتقاء حياة نعيم، ولكن بأسباب المخالفة والمعصية ارتكب خطأً فأخرج به هبوطًا من الجنَّة إلى الحياة الدّنيا، والتي من بعدها أصبح واضعًا نصب عينيه أمل العودة إلى تلك الجنَّة التي ضاعت من بين يديه وهو يتحسّر، بما أقدم عليه شهوة وإرادة، حتى وإن كان بأسباب الإغواء، ولكن بعد أن استغفر ربّه، ظل يعمل من أجل العودة إلى ذلك العيش الرّغد الذي حُرم منه بما ارتكبه من فعل منهي عنه، ومع ذلك ساد الصّراع بين النّاس إلى يومنا هذا (بين من صدّق الرّسل ومن كذّبهم)؛ فمن صدّق الرّسل يأمل كما أمِلَ الإنسان الأوّل الارتقاء إلى الجنَّة التي عاشها حياة فردوس، ومن لم يصدّق فلا يرى جنّة، وهنا تكمن العلّة.

وهكذا فالإنسان لم يقف عند ما يأمله، بل تجاوزه بالعمل حتى صعد إلى القمر الذي كان يعتقد أنّه الجنَّة، ثم تجاوز القمر كونه لم يكن كذلك، فغزى الفضاء اكتشافًا، وهو في سعيه لم ييأس ارتقاء من بلوغ ما هو أعظم، ولا غاية له من وراء ذلك إلّا تحقيق الرِّفعة وبلوغ الجنَّة، إنّها رسالة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام؛ فمن أخذ بها ارتقاء أخذ بما يجب الأخذ به، ومن

لم يأخذ بها؛ فلن يبلغ التقدّم والارتقاء المحقّق لإشباع الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة وبناء الحضارة التي ترتقي بصُنّاعها إلى صناعة المزيد رفعة.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء خَلقا، لكنّه لم يحافظ على ارتقائه؛ فأُهبط به من علوٍّ إلى دنيا، ومع ذلك عيناه لم تفارق السّماء، بل ظلّت تبصر هناك بأمل العودة، وهذا الأمر هو الذي حفّزه على العمل، ودفعه إليه ارتقاء.

فالإنسان لو لم يكن مؤهلًا للارتقاء، ما فكّر وتدبّر حتّى تمكّن من اقتناص الفكرة التي مكنته من غزو الفضاء، وهو يأمل في المزيد ارتقاء، ولأنّ حاجات الإنسان متنوّعة ومتطوّرة؛ فهي إن لم تواكب من قِبله بالعمل المتطوّر تصبح ضاغطة عليه ألما شديدًا؛ فعليه بالعمل وتحدّي الصّعاب، ولا يخشى شيئا سوى الحقّ الذي يمكّنه من التقدّم والنّهوض وتحقيق الرِّفعة والمكانة قمّة.

ولهذا فما بلغه الإنسان من ارتقاء علمي وثقافي وحضاري يؤسّس قاعدة عريضة للمزيد المعرفي الممكّن من الإصلاح والبناء وقبول التحدّي من أجل الأفضل والأفيد والأنفع والأرقى، ومن أراد أن يرتقي إلى المأمولات العظام فلا إمكانية له إلّا بذل الجهد والعمل الذي له من الأهداف ما له، وله من الأغراض ما له، ومن وراء كلّ ذلك غايات تُبلغ ومأمولات يتمّ نيلها أو الفوز بها؛ ولهذا فالرِّفعة عملًا تُحقِّقُ:

- الارتقاء.

. تبوء المكانة.

. القدوة الحسنة.

. الاعتماد على الذّات.

. بلوغ الغايات.

. نيل المأمولات.

وعليه: فالأمل ارتقاء لا سقف له؛ فلا تجعل من مستوى الجودة الذي بلغته مظلة لتجلس تحت ظلّها وكأنّها الغاية، بل عليك أن تعرف أنّ الجودة درجات سُلم يتمّ الصّعود عليها، ولا يتمّ الصعود إليها؛ ذلك لأنَّ الوسيلة ليست الغاية ولا المأمول، ولأنّ السّلم وسيلة فلا تقف عنده وكأنّه المهم الذي لا شيء مهم من بعده.

فعليك بالعمل؛ فالعمل الصّالح كما يرضي القائمين به جهدًا مبذولا يرضي الله، ولكلّ جزاؤه: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[47]، أي: لكلٍّ حسابه؛ فللعمل الرّاقي حسابه، وللعمل الواطي حسابه، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

ولأنّ العمل ارتقاءً يؤدّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدّي إلى ما يُغرقهم فيه؛ فهم بين هذا وذاك، بين ارتقاء فيه العمل يُتقن، ودُونيَّة بها يُهمل وينحرف به إلى ما لا يجب؛ ولذلك كان الصّدق ارتقاء في

[47] الزلزلة: 7، 8.

مواجهة الكذب انحدارا، وكان العدل ارتقاء في مواجهة الظلم انحدارًا، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحريَّة في مواجهة الاستعباد، والديمقراطية في مواجهة الدكتاتوريَّة، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب التحدّي بما يمكّن من الارتقاء قمّة ورفعة.

ولأنّ بني آدم بين ارتقاء ودونية؛ فهم بينهما بين ما يرسّخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وما يؤدّي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشأن.

ولذلك؛ فالسِّياسة رفعة لا ترى العمل الصّالح إلّا ارتقاء، وفي المقابل العمل الفاسد والرّغبة الفاسدة، لا يكونان إلّا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب مصالح الآخرين، ورغباتهم، ومصائرهم، وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة، ومن ثمّ؛ فالعفّة والأمانة والنّزاهة وتحمّل أعباء المسئوليَّة رفعة، ستظل قيما في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السُّفلية والدّونيَّة التي تتمركز على الأنا[48].

فالرِّفعة لا يمكن أن يبلغها بنو آدم إلّا عدلًا وعملًا وعفوًا وصفحًا، وكذلك الانحدار لا يمكن أن يبلغوه إلّا ظلمًا وإهمالًا وتشدّدًا وتطرّفًا؛ ولذا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع من شاء الارتقاء عمل من أجله ارتقاء، ومن شاء الانحدار عمل من أجله سُفليّة[49].

[48] المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2021م، ص 166 – 182.

[49] عقيل حسين عقيل، الأمل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 193.

المأمولُ قمَّةٌ:

المأمول هو ذلك المترتّب على صناعة الأمر، أو أنَّه الذي صُنع أملًا، وهو الذي تسبقه الغاية وترشد إليه؛ ومن هنا تعد القمَّة تبوء مكانة، وقد تكون المكانة إيمانًا رفيعًا، وقد يكون كفرًا وشركًا؛ ولهذا وراء كل أملٍ نيَّةٍ (مقصد) وهو الذي يحدِّدُ جوهر الأمل، ونيَّة الآمل، ونوع المأمول وشكله.

ولأنَّنا افترضنا في كلٍّ من الأمل والمأمول خيرًا، وفقًا لقاعدة التسيير الإلهي، والتخيير طاعة لما يجب؛ فإنَّنا عَدَدنا الأخلاق قمَّة الآمل.

والأخلاق قمَّة هي نتاج القيم الحميدة، والفضائل الخيّرة، التي تستمدّ من الأديان والأعراف ارتقاءً، بها يرتقي الإنسان قولًا وفعلًا وعملًا ومعرفةً وسلوكًا من أجل علاقات اجتماعيَّة وإنسانيَّة مؤسّسة على نيل التقدير والاعتبار.

فالإنسان أساس خَلقه الارتقاء (في أحسن تقويم) وأمله الارتقاء خُلُقا إلى ما يجب، ومع أنَّ الأخلاق بيد النّاس، فإنَّ بعضهم انحدارًا يخسرها بلا ثمن.

ولذلك فالإنسان الأوّل قد خُلق من تراب الجنّة، وظل على خَلقه سلالة بشريَّة تمتدّ بين طينٍ لازب وماء دافق، ولا انحدار عن الخَلق المقوّم ولا تطوّر من بعده؛ فالإنسان هو الإنسان، ولكن الانحدار والتطوّر في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع؛ فآدم عليه السّلام وزوجه خُلقا في

الجنّة من تراب الجنّة، ومع ذلك تعرّضا لإغواءٍ جعلهما على حالة من الانحدار عن الفضائل التي أمر بها الخالق تعالى؛ حيث لم يلتزما بالأمر النّاهي عن الأكل من تلك الشجرة، {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[50].

إذن فالبقاء في الجنّة بقاء فضائل خيّرة، فمن لا يكون عليها لا يكون فيها، فحتى آدم عليه الصّلاة والسّلام الذي خُلق في الجنّة خَلقًا، أُهبط به على الأرض الهابطة إلى الحياة الدّنيا؛ وذلك بأسباب معصيته، وميله لوسوسة من أغواه شهوة.

ولأنَّ الأخلاق يتمّ تشرّبها فضائل خيّرة؛ فبعد أن تلقّى آدم كلمات من ربّه ترشد إلى التي هي أقوم تاب الله عليه: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[51]، ومع ذلك صدر الحكم عليه والأرض ومن عليها من المخالفين أن يهبطوا من علوٍّ وارتقاء إلى سُفليّة ودونية: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا}[52].

ولأنَّ الهبوط كان نتاج الانفتاق العظيم؛ فهو خروج من الجنّة، حيث ظلّت الجنّة في العلو رُقيًّا، وظلّ آدم ومن معه من المخالفين والعصاة (الإنس

---

[50] البقرة 36.

[51] البقرة 37.

[52] البقرة 38.

والجن) يحيون الدّنيا على الأرض الدّنيا، وفي المقابل بقي الملائكة الطّائعون في علوّ الجنّة ارتقاء، ولا يتنزّلون إلى الأرض الدّنيا إلّا تنزيلا لأداء مهمّة تربط أمرا بين السّماء والأرض، نحن نجهله: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذن رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}[53].

ولأنّها الأرض الدّنيا، وحياة المخالفين والمختلفين عليها مملوءة وسوسة وإغواء؛ فلا إمكانيَّة لأن تكون فيها الحياة آمنة مستقرّة لو لم تتنزّل الرّسالات والأنباء الواعظة والنّاهية والآمرة والمحذّرة والمنذرة والمبشّرة بما هو أمل يشبع حاجة ويرضي رغبة؛ وذلك من أجل علاقات إنسانيَّة تنظّم أساليب الحياة ارتقاء وتلفت المختلفين إلى ما يؤدّي إلى الاتعاظ، ويمكّنهم من إحداث النُّقلة وبلوغ القمّة المأمولة.

وعليه:

الأمل ليس غاية في ذاته، بل الغاية من ورائه بلوغ المأمول قمَّة ثم نيله نُقلة، والآمال هي المرجوة بلوغًا ثم نيلًا، سواء أكانت بحثًا علميًّا أم عملًا أم أيّ مقصد من المقاصد المعلومة؛ ولهذا تحدد لها الأهداف؛ لتكون مرشدة لمراميها.

فالآمال تحدّد لها الأهداف وفق الإمكانات المتاحة من قبل الذين يأملون إنجاز ما يمكن إنجازه علمًا أو معرفة أو بناء وإعمارًا وصناعة مستقبل

[53] القدر 3 . 5.

تحدث النُّقلة أخلاقًا، وهي لا تكون محدّدة إلّا بعد وضوح رؤية تجاه ما يجب الإقدام عليه، ومن ثمّ فالصّراع بين بني آدم اختلافًا وخلافًا لن ينتهي بين البناة أملًا، والهادمين له انحدارًا ما لم يضع الجميع نصب أعينهم أهدافًا مشتركة (قابلة للإنجاز)، من ورائها أغراض قابلة للتحقّق، وغايات يجب أن تُبلغ ارتقاءً، وآمال رفيعة يتم نيلها.

فالاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة من أجل إحداث النُّقلة أخلاقًا، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي له أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدًا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي للأهداف أن تحدّد وفقًا لأملٍ مشترك يجمع شمل المتفرّقين خِصامًا، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلًا وارتقاءً.

ومن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة حيث لا أمل، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظّروف ارتقاءً، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة، فالأمل الرّفيع يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي ارتقاءً

تذكّر؛ فاتّعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافا من ورائها أغراضٌ، والغاية من ورائها القمّة مأمولة.

والحمد لله ربّ العالمين

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدّكتور عقيل حسين عقيل: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (178) مؤلّفا منها: ستَّةُ موسوعات، وهي:

. الموسوعة القيمية لبرمجيَّة الخدمة الاجتماعيَّة (4 مجلَّدات)، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

. موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض (11 مُجلَّد)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

. موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن (9 مجلَّدات)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

. موسوعة الأنبياء من وحي القرآن (12 مجلَّد)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

. موسوعة من قيم القرآن الكريم (13 مجلَّد)، شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

. موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة (27 مجلَّد)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميَّات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية، والتركيَّة.

المؤلّفات

1 ـ مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 ـ الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3ـ فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 ـ منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البُستان الحُلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا، 2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 ـ خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجيَّة القيميَّة لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31 ـ إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

32 ـ شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

33 ـ يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

34 ـ داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

35 ـ يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

36 ـ أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

37 ـ موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

38 ـ عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

39 ـ محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 ـ وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 ـ ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 ـ العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 ـ السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 ـ الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 ـ العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 ـ فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 ـ بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 ـ من معجزات الكون (خَلق ـ نشوء ـ ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 –كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشرية (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطريقة العلمية لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة: 2022م.

164 . أيد السارقِ تقطع، المصرية، القاهرة: 2022م.

165 – العقل من اللاشيء إلى الشيء دراية، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

166 – النُّقلة من التكيف إلى التوافق، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة 2022م.

167 – أوهام الأنا (اللاهويَّة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

168 – استرداد السِّيادة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م

169 – موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م.

170 – العقل قيد (من الأمّية إلى الاستنارة)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2022م.

171 – الرِّجال القوامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م.

172– الدِّراية من الأمر إلى الطاعة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م.

173– النشوز والقيم القوَّامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م.

174 – استطلاع الدراسات السابقة (من حيرة الباحث إلى نيل المأمول)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م.

175 – الخدمة الاجتماعية الناهضة (قواعد ومبادئ)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م.

176 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة، (غرسُ ثقة، تحدّي صِعاب، إحداثُ نُقلة)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م.

177 – الخدمة الاجتماعيّة النَّاهضة (من التكيُّف إلى صُنع الأمل)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م.

178 – الخدمة الاجتماعيّة النّاهضة (من التكيّف إلى صنع الأمل)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشريَّة، الولايات المتحدة الامريكيَّة (جامعة جورج واشنطن) 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامًّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرًا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينًا عامًّا للتنمية البشريَّة بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (178) مؤلّفا منها ستة موسوعات.

. أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: https://draqeel.com/